
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾
الإصلاح
لا يُصلِحُ آخِرَ هذِهِ الأُمَّةِ إلاّ ما أَصْلَحَ أوَّلَها
مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع
السنة الثامنة . العدد الأربعون: رجب/شعبان 1435هـ الموافق لـ ماي/جوان 2014م
الفتنة في اتباع المتشابه
إنكار سب رب العالمين
عباس ولد عمر
فضل العبادة زمن الفتنة
عمر الحاج مسعود
صلاة النبي عليه السلام بالأنبياء
ليلة الإسراء ـ للمقدسي (600هـ)
خالد حمودة
نصيحة إلى أبناء الجزائر
السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112. 6825

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [سورة النساء].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [سورة الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

■■■





مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو
المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: (021) 51 94 63
(النقال): (0559) 06 99 92
التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



ذم العجلة

إنَّ من الصِّفات الذَّميمة المعيبة: العجلة، قال الله سُبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، أي: خُلق عجولاً يُبادر الأمور، ويستعجل حصولَها قبلَ أوانها؛ ويطلبُ أخذَ الأشياء قبلَ وقتها.

والعَجُول كثيرُ الخطَأ، قليل التَّثبُّت والتَّدبُّر، ولا يقدِّر للأمور عواقبَها؛ وهو ما يدفعُه إلى وضع الأشياء في غير مواضعها، فلا يجني من تعجُّله سوى الحرمان والفَوت، فيجلب على نفسه أنواعًا منَ الشُّرور، ويحرمها أصنافًا من الخير؛ فصدقَ من كنَّى العَجلةَ بأمِّ النَّدامة؛ لأنَّه قلَّ مَن استعجَل إلاَّ ندمَ، وما سَلِمَ، وآلت أمورُه إلى فَرط وشَطَط.

فلا تقُل ولا تكتُب قبلَ أن تعلَم، ولا تُجب قَبل أن تفهَم، ولا تعزم قَبل أن تُفكِّر، ولا تقطَع قبلَ أن تقدِّر، ولا تحمد قبلَ أن تجرِّب؛ ولا تُذع شيئًا قبلَ أن تتثبَّت؛ فالحليمُ المتأنِّي لا تُثيره بداياتُ الأمور، ولا يستفزُّه أَهْلُ الطَّيْش والخفَّة، ولا يستَخفُّه أهلُ التَّشويش والإثارة منَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ؛ ولا يهيِّجه أهلُ العواطف والحماسَة، بل يملكُ نفسَه عند دوَاعي الغَضب والسَّخط، وعواطفُه منقادةٌ للشَّرع، جاريةٌ على مقتضَى الحكمَة والعَقل.

وإذا كانَ الاستعجَالُ قبيحًا؛ فهو في المنتَسب إلى العلم والدَّعوة أقبح؛ فحريٌّ به ألاَّ يتعجَّل في الفتوى والتَّصدُّر، ولا في حرق مراحل التَّعلُّم والتَّدرُّج، ففي «شعب الإيمان» (1803) عن الإمام مَالك رحمه الله أنَّه عَاب يومًا العَجَلَةَ في الأُمُور، ثُمَّ قَالَ: «قَرَأَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما البَقَرَةَ في ثَمَان سنِينَ»؛ والله تعالى رفيقٌ يحبُّ الرِّفق والتَّأنِّي في الأعمال والأمور، والمتَّئد من النَّاس محمودُ العاقبة مخطئًا ومصيبًا؛ قال ﷺ: «التَّأَنِّي منَ الله، والعَجَلَةُ منَ الشَّيْطَان».

والرَّشيد من النَّاس هو مَن قَدَّ منَ العَجلة معنًى حميدًا؛ وهو المبادرة إلى الخيرات، والمسارعَة إلى المرضيات، ومعناه انتهاز الفُرص في وقتها؛ قال تَعالى عن موسَى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [سُورَةُ طه]؛ فرضَى الرَّبِّ في العَجلة إلى أوامره؛ وبهذا احتجُّوا على أنَّ الصَّلاةَ في أوَّل الوقت أفضل.

فليسَ منَ التَّأنِّي تضييع الفُرص وتفويتها، بل هو تهاونٌ وتماوتٌ؛ لأنَّ الكسَلَ قرينُ الفَوت والإضاعَة؛ فلابدَّ إذًا من سلوك الحليم الواثق الَّذي يصدُر عن علم وبصيرة، وحزم وعزيمة؛ ليكونَ على طريق الرُّشد والثَّبات، مفرِّقًا بين العجلة والمبادرة.

وتأكَّد أنَّ العَجلةَ لا تقدِّم نصرًا آتيًا، والأناةَ لا تُؤخِّره؛ وإنَّ اللهَ قَد جعل لكلِّ شيء قدرًا؛ وقد أحسنَ مَن قال:

لكلِّ شيءٍ في الحياة وقتُه ... وغايةُ المستعجلين فوتُه!



محتويات

العدد الأربعون - السنة الثامنة:
رجب - شعبان 1435 / ماي - جوان 2014





رثاء الأحياء

50

غلاف العدد السابق




فضل العبادة زمن الفتنة




المراهقة

مفهومها الشرعي

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو- المحمدية- الجزائر

الفاكس: (021) 51 94 63

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

سعر النسخة: (200 دج)

الاشتراك السنوي للأفراد: (1200 دج)

الاشتراك السنوي للمؤسسات: (1500 دج)



الفتنة في اتِّباع المُتشابه

إنَّ منَ الأصُول العَظيمة والقواعد المتينَة الَّتي لا يُتوصَّل إلىالهداية إلاَّ عَن طريقها والتَّمسُّك بها، هو لزومُ واتِّباع المحكَم الواضح من الدِّين، وتحكيم هذَا المحكم الَّذي لا التباسَ فيه على كلِّ متَشابه، وردُّ هذا المتشابه إلى الجليِّ منه؛ قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ ﴾.

فوصفَ الله تعالى المُؤثرين للمُتشابه على البيِّن المُحكَم الواضح بأنَّ في قُلوبهم زَيغًا وهو الميلُ عن الاستقامة والخروج عن الحقِّ؛ وهُو ما يحملُهم على الأخذ بالمتشابه الَّذي يسهِّل عليهم عمليةَ تحريف النُّصوص إلى مقاصدهم الفاسدَة، وتنزيله على مآربهم الخسيسَة؛ ويعكسون الأمرَ فيَحملونَ المُحكَم على المتشابه؛ وهذَا العدول منهم عن قَصد السَّبيل انتَهى بهم إلى مَيْل قُلوبهم عن الحقِّ، فلا يوفَّقون لإصابته عقوبةً لهم على زيغهم الَّذي اختَارُوه لأنفُسهم ورضُوه لها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾؛ وقال ابنُ كثير في هذا المعنى: «فأمَّا المحكَمُ فَلا نصيبَ لهم فيه؛ لأنَّه دامغٌ لهم، وحُجَّةٌ عليهم».

ولهذَا نصَّت الآيةُ على أنَّ هؤلاء المتَّبعين لمُتشابه الكتَاب منَ المُنحرفينَ والمبتَدعين، قصدُهُم في ذلكَ: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ وهُو الإضلالُ والتَّلبيس على أتباعهم، وإيهامهم أنَّهم يحتَجُّون على بدَعهم وباطلهم بالقُرآن، وحقيقَة الأمر أنَّه حجَّةٌ عليهم لا لهُم.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي تأويلِه الَّذي لا قِبَل لهم به، وهو الحقيقَةُ الَّتي يَؤُولُ إليهَا أمرُ هذا المتشابه الَّذي لا يعلمُه إلاَّ الله مُنزِّلُه، فيفسِّرونه على مُرادهم لا على مُراد الله تعَالى؛ وهذَا كحَال الخوارج الَّذين قال عنهُم ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وقَد ذُكروا عنده: «يؤمنون بمُحكَمه، ويَهلكُون عند مُتَشابهه! ثمَّ قرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، الآية.

وأمَّا الرَّاسخُون في العلم فيؤمنون بكلِّ ما في القرآن، ويرون أنَّه ليس في كلام الله تناقض ولا تضارب؛ فيُسلِّمون الأمر إلى الله؛ لأنَّه أعلمُ بمُراد كلامه.

والمقصودُ بهذه التَّوطئة أنَّ كثيرًا منَ النَّاس ممَّن قلَّ علمُهم وفهمهم للقُرآن والسُّنَّة يغفلون عن هذا الأصل الكبير، ويعمدون إلى تقديم المتَشابه وردِّ المحكم إليه، بل عدم الالتفات إلى المُحكَمات أصلا؛ ومثال ذلك النُّصوص الصَّريحة في أنَّ الظُّلم الواقع على العبد سببُه ظلمه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

فكلُّ هذه الآيات وغيرها تؤكِّد أنَّ معاصي العبد وذنوبه تعود عليه بالضَّرر، وتكون سببًا فيما يقع عليه من عقوبات في الدُّنيا

والآخرة، فالله عزَّ وجلَّ لا يزيد في سيِّئات المسيئين، ولا يُنقص من حسنَات المحسنين؛ لهذا كان من البدهي أنَّ من أراد أن يُرفع عنه الظُّلم أن يرجع أوَّلا على نفسه باللاَّئمة ويفتِّش في معايبها ويُصلحُها، وينقِّب عن أدوائها فيُعالجها، وبهذا يكون قد لزِمَ المحكمَ منَ القرآن الكريم واتَّبعه؛ وأمَّا أن يسعى إلى دفع هذا الظُّلم ودرئه بوسائل وطرائق هي نفسُها تحمل ظلمًا واعتداءً، ويُعرض بالكلِّيَّة عمَّا هو مقرَّرٌ في مُحكم التَّنزيل، ويرجو بعدَها رفْعَ الظُّلم عنه وهُو من أظلم النَّاس وأشدِّهم بغيًا؛ فهذا هو الجهل بعينه.

ولمَّا غلبَت الأثَرَةُ وحُبُّ الذَّات على النَّاس؛ عزَّ عليهم أن يروا شيئًا من حقوقهم الماديَّة يُهضَم، فصار الحال السَّائد لدى الشُّعوب الإسلاميَّة خاصَّة هو الشُّعور بالظُّلم وسَلْب الحقوق المشروعة، وأنَّ الحرِّيَّات مكبوتة، وأنَّ الثَّروةَ توزَّعُ بلا عَدل ولا سويَّة وصاروا لُقمةً سائغةً لأتباع المتشابه منَ الدِّين يروِّجون عليهم متَشابهم، وصرفوهم عن المحكمات؛ فأقنعوهُم أنَّ أمثلَ وسيلة لاسترداد ما أُخذه منَّا حُكَّامنا إنَّما هو بالخروج إلى الشَّوارع في مظاهرات ومسيرات واعتصامات؛ وزعموا أنَّها من الوسائل المشروعة، باعتبارها من العادات أو النَّوازل الَّتي لم يرد فيها شيءٌ يمنع منها؛ وكأنَّ شريعتَنا الغرَّاء قَد خَلَت من الحلِّ لمثل هذه القضيَّة، وكأنَّ نبيَّنا ﷺ المشفق على أمَّته النَّاصح الأمين قَد أغفل مثل هذا الباب؛ والحقُّ الَّذي لا ريب فيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَد أخبر أنَّه سيُبتلى النَّاس بعدَه بأمراء ظالمين، وسلاطين جائرين، فلم يذكُر طريقة لعلاج هذا الواقع المرِّ والمؤلم سوى الصَّبر واللَّجأ إلى الله تعالى؛ ففي البخاري (2603)، ومسلم (1843) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ منَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ» وفي هذا الحديث فائدتان عظيمتَان: أولاهما: أنَّه من دلائل نبوَّته ﷺ؛ لأنَّ الأمر وقَع كمَا أخبَر؛ والثَّانية: أنَّ «فيه الحثَّ على السَّمع والطَّاعة ـ وإن كانَ المتولِّي ظالمًا عَسُوفًا ـ، فيُعطى حقَّه منَ الطَّاعة، ولا يُخرَجُ عليه، ولا يُخْلَع، بل يُتَضرَّعُ إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شرِّه وإصلاحه» قاله النَّووي في «شرحه على مسلم» (12/232).

أينَ هذا الحلُّ الشَّرعيُّ المتين، من الحلِّ الوافد من حضَارة الغَرب الكَافر العلمَاني الَّذي أنتجته أذهانٌ بشريَّةٌ أرضيَّةٌ لا تحتكم إلى شريعة، ولا تعترف بحلال ولا حرام؛ فالنَّبيُّ ﷺ ذكَر الدَّاء، ووَصَف الدواء، ولو كان لهذا الدَّاء علاجٌ غيره لذكره وما أغفلَه، لما نعلمُه من صدق نصحه لأمَّته ـ بأبي هو وأمِّي ـ ﷺ.

وفي موطن آخَر نصح أمَّتَه ـ من بعده عند تسلُّط الحكَّام الظَّلمة، واستبدادهم واختصاصهم بالأموال والخيرات ـ بالصَّبر؛ ولم يجعل لهذا الصَّبر حدًّا وغاية سوى لقائه عند حوضه، ففي البخاري (7057)، ومسلم (1845) عَنْ أُسَيْد بن حُضَيْر، أَنَّ رَجُلاً منَ الأَنْصَار خَلا برَسُول الله ﷺ، فَقَالَ: أَلَا تَسْتَعْمِلُني كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلانًا؟ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْض».

وإنَّ العجبَ لا ينقضي ممَّن ينتسبُ إلى الدَّعوة أو ما يسمَّى بالحركات والأحزاب الإسلاميَّة وتعشو عينُه عن مثل هذه النُّصوص المحكمات ويتشبَّث بالمتشابهات، فيَدع الوحيَ المنزَّلَ المعصومَ، ويلهث وراءَ سراب آلة إعلاميَّة تخدع بالصُّور، وتزيِّف الخبر بما يثير الفتنةَ والشَّرَّ؛ فتُوجِّه رأيَه، وتشكِّل تصوُّرَه، وتُحدِّد موقفَه فيحسبُ أنَّه على شيء؛ وليس هو على شيء، وبعد زمن سيجد نفسَه صريعَ مؤامرة حُبكت بإحكام، وضحيَّةَ أطروحات صُنعت خارج الدِّيار، لا تريد للأمَّة المحمَّدية غير الفوضَى والشَّغب، وأن تعيش في الحيف والسَّغَب، فيتحوَّل هذا المتظاهر المسكين إلى أداة هدم وتخريب يتحرَّك أو يُحرَّكُ وفقَ أجندة تلكَ الأطروحات بشعور منه أو من غير شعور؛ وإنَّ كلَّ مَن لم يُسلِّم أمرَه للوحي تسلَّمه الشَّيطان والهوى.

فالمسلم العَاقل يبذُل وُسْعَه في أن تكون تصرُّفاتُه كلُّها تحتَ نظام الشَّرع وسُلطانه، وقَد وضح لكلِّ ذي عينين أنَّ المحكَم منَ الشَّرع قَد نصَّ في التَّعامُل مع الحاكم المسلم ولو كان ظالمًا جائرًا بنصوص فيها ضوابط وأحكام لا يصلُح أمر اجتماع النَّاس إلاَّ بها، ولا يحفظُ أمنَهم ويلتئمُ اجتماعُهم إلاَّ بلزومها؛ ولا يغرَّنَّك صيحاتُ المفتونين بالثَّورات الدَّاعية إلى مثل هذه الوسائل البدعيَّة وزعمهم أنَّها قَد آتت ثمارَها في أماكن عديدة من العالَم، وإن تعثَّرت في أماكن أُخرى؛ فيقال جوابًا عنهم: وهل يليق أن نُغامر بالأمَّة ونَحملها على وسيلة لا ندري أين تحطُّ بها؛ وندع الوحيَ المقطوعَ بسلامة آثاره وحلاوة ثماره؟ وقد أطبق علماؤنا الموثوقون كابن باز والألباني وابن عثيمين ـ رحمهم الله ـ وغيرهم على منع المظاهرات والتَّحذير منها، وأنَّها من أسباب الشُّرور والفتن.

فيجب أن تكونَ ثقتُنا في نبيِّنا ﷺ مقدَّمةً على كلِّ ثقة حتَّى فيمَا نشاهدُه ونراه؛ فلا يهزُّها واقعٌ، ولا يزعزعُها طارئ، ونوقنُ أنَّ المصلحةَ في التَّسليم والمتابعَة، وأنَّ المفسدة والفتنَةَ في المشاقَّة والمخالفَة.

كما لا يمكن أن يتغنَّى متهوِّرٌ مفرِّطٌ بأنَّ الشَّجاعة هي في الخروج في هذه المظاهرات للمطالبة بالحقوق ومجابهة قوات حفظ الأمن، بل الشَّجاعة في المصابرة والوقوف في وجه الجَماهير لنَصر السُّنَّة المحكمَة ومقارعَة البدعة المشتبهة.



آيةٌ جامعة فاذّة

د.رضا بوشامة
أستاذ محاضر بجامعة الجزائر

روى الإمام مالك في «الموطَّأ» (1281) والبخاري (2371) ومسلم (9871) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«الخَيْلُ لرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا في سَبيلِ الله، فأَطَالَ بها في مَرْجٍ أَوْ رَوْضَة، فَمَا أَصَابَتْ في طيَلِهَا ذلك منَ المَرْجِ أو الرَّوْضَة كَانَتْ لَهُ حَسَنَات، ولو أَنَّهُ انقطعَ طيَلُهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَات لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بنَهَرٍ، فَشَرِبَتْ منْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقيَ كَانَ ذَلكَ حَسَنَات لَهُ، فهي لذلك أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ الله في رِقَابِهَا وَلاَ ظُهُورِهَا، فهي لذلك سِتْرٌ، ورَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لأَهْلِ الإِسْلاَم، فَهِيَ عَلَى ذَلكَ وِزْرٌ».

وسئِلَ رسول الله ﷺ عن الحُمُرِ، فقال:

«مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فيهَا شَيْءٌ إِلاَّ هَذه الآيَةُ الجَامعَةُ الفَاذَّةُ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾».

تضمَّن هذا الحديث أنَّ أوجه اتِّخاذ الخيل ثلاثة: فمن اتَّخَذَها ابتغاءَ مَرضاة الله وثوابه كانت له أجرًا وثوابًا؛ ومَن اتَّخذها ضدَّ ذلك كانت له سوءًا وعذابًا، فلمَّا سُئل عن اتِّخاذ الحُمُر؟ قال مقالةً عامَّةً جامعةً: «لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فيهَا شَيْءٌ إلاَّ هَذه الآيَةُ الجَامعَةُ الفَاذَّةُ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾».

ومعنى الفاذَّة: القليلة النَّظير، والجامعة: العامَّةُ المتناولةُ لكلِّ خيرٍ ومعروفٍ، أي لم ينزلْ عليَّ فيها نصٌّ بعينها، لكن نزلت هذه الآية العامَّةُ.

فوصف - عليه الصَّلاة والسَّلام - هذه الآية العظيمة الواقعة في آخر سورة الزَّلزلة بالفاذَّة القليلة النَّظير والجامعة لتناولها كلَّ معروف وخير.

قال ابن عبد البرِّ: «يعني - والله أعلم - أنَّها آيةٌ منفردةٌ في الخير والشَّرِّ ولا آية أعمُّ منها؛ لأنَّها آيةٌ تعمُّ كُلَّ خَيْرٍ وكُلَّ شَرٍّ»[1].

وقال ابن حجر: «سمَّاها جامعةً لشمولها لجميع الأنواع مِن طاعةٍ ومعصيةٍ، وسمَّاها فاذَّةً لانفرادها في معناها»[2].

فمَنْ تأمَّل هذه الآيةَ القليلةَ الكلمات وجدَها تحوي معانيَ كثيرةً، فنظائرُها في القرآن قليلةٌ؛ إذ فيها ترغيبٌ وترهيبٌ وتشويقٌ وتحذيرٌ، مَن فقهها وعمل بمقتضاها غَنِمَ خيرَي الدُّنيا والآخرة، فكانت بحقٍّ فاذَّةً جامعةً، دلَّت على جُمل من الأحكام والفوائد نوجزها في هذه الوقفات:

(1) «التَّمهيد» (131/12 - موسوعة شروح الموطَّأ).
(2) «فتح الباري» (65/6).



الوقفة الأولى:

أنَّ كلَّ عمل يعمله العبد يُجازى عليه يوم القيامة، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرٌّ، فيرى أعمالَه الَّتي عملها في الدُّنيا صغيرَها وكبيرَها، ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الكهف].

وفي الحديث القدسي الطَّويل: «**قال الله تعالى: يَا عِبَادِي إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَد اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلكَ، فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ**»[3].

حتَّى مثاقيل وموازين الذَّرَّات يراها الإنسان، والذَّرَّة هي النَّملة الصَّغيرة، وقيل: ما يُرى من شُعاع الشَّمس من الهباء، فأقلُّ القليل يُحصى على العبد ثمَّ يُجازى عليه، فهو تنبيهٌ على أنَّه إن جُوزي على القليل، فالكثير من باب أولى وأحرى أن يُجازى عليه ففيه تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى[4]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة يونس].

فبيَّن الله تعالى أنَّه لا يُغفل من عمل ابن آدمَ صغيرةً ولا كبيرةً، وورد الفعل على صيغة المضارع من باب الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التَّنبيه والتَّحذير، والمراد العمل الَّذي كان منهم في الدُّنيا، كما نبَّه على ذلك الشَّيخ محمَّد الأمين الشَّنقيطي رحمه الله[5].

(3) مسلم (2577).
(4) انظر «البحر المحيط» لأبي حيَّان (498/8).
(5) «أضواء البيان» (434/9)، وانظر «جامع البيان» للطَّبري (563/24).

الوقفة الثانية:

أنَّ الإنسانَ سواءٌ كان كافرًا أو مؤمنًا قد يعمل الخير، أمَّا المؤمنُ فيُجازى عليه في الدُّنيا والآخرة، وهذا لا إشكال فيه.

وأمَّا الكافرُ فإن عمل خيرًا في هذه الدُّنيا فهل يراه في الآخرة؟ مع أنَّ الآيات صريحةٌ في إحباط عمله، كقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [سورة هود]، وقوله: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) ﴾ [سورة الفرقان]، وقوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [سورة إبراهيم]، وغير ذلك من الآيات.

وفي مسلم (214) عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُدْعانَ كان في الجاهليَّة يصلُ الرَّحمَ، ويطْعمُ المسكين، فهل ذاك نافعُه؟ قال: «**لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**».

وأجاب العلماء على ذلك باحتمالات:

الأوَّل: أنَّ الآية من العامِّ المخصوص، فمن يعمل مثقالَ ذرَّة من خير يره إن لم يُحبطه الكفرُ، بدليل ما تقدَّم من الآيات.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ باقيةٌ على عمومها، والكافر يرى جزاء عمله الحسن في الدُّنيا، فإذا جاء يوم القيامة لم يكن له حسنات، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) ﴾ [سورة هود]، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) ﴾ [سورة الشورى].

وروى ابن جرير الطَّبري في «جامع البيان» (563/24) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) ﴾ قال: «ليس مؤمنٌ ولا كافرٌ عمل خيرًا ولا شرًّا في الدُّنيا، إلاَّ آتاهُ اللهُ إيَّاهُ، فأمَّا المؤمنُ فيُريه حَسَناته وسَيِّئَاته، فيَغْفرُ اللهُ له سَيِّئَاته. وأمَّا الكافرُ فَيُردُّ حَسَناته، ويُعذِّبُه بسَيِّئَاته».

الثَّالث: أنَّ الكافرَ يرى ما قدَّم من خير يوم القيامة، فيُحبط ما قدَّم من خيرٍ ويُجَازَى بما فعل من الشَّرِّ.

وفي مقابل ذلك ـ أيضًا ـ المسلم؛ فإنَّه قد يعمل من الشَّرَّ في الدُّنيا، فهل يرى ذلك الشَّرَّ يوم القيامة، وقد صرَّحت الآيات بعدم لزوم مؤاخذته به؛ لاحتمال المغفرة أو لوعد الله بها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: 48، 116]، ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [سورة النساء]، وغير ذلك من الآيات.

فللعلماء في ذلك ثلاثةُ أقوال:

الأوَّل: أنَّ الآيةَ من العامِّ المخصوص، والمعنى: فمن يعملْ مثقالَ ذرَّة من شرٍّ من المسلمين يره يوم القيامة إن لم يغفره الله له، بدليل الآيات المُتقدِّمة وما في معناها.

الثَّاني: أنَّ الآية على عمومها، وأنَّ المؤمن يرى جزاء عمله السَّيِّء وعقوبةَ ذلك في الدُّنيا في نفسه وأهله وماله، بالمصائب والبلايا والأمراض والآلام

الَّتي تصيبه، حتَّى يلقى الله في الآخرة وليس له فيها شرٌّ.

ودليل ذلك ما روى الطَّبري في «جامع البيان» (564/24)، والطَّبراني في «الأوسط» (8407)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (9351) عن أنس قال: «بينا أبو بكر الصِّدِّيقُ يأكل مع رسول الله ﷺ إذْ نزلت عَلَيْه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، فرفع أبو بكر يَدَهُ، وقال: يا رسول الله، إنِّي لرَاء ما عملتُ منْ مثقال ذرَّة منْ شَرٍّ؟ فقال: «يَا أَبَا بَكْر، أَرَأَيْتَ مَا تَرَى فِي الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ فَبِمَثَاقِيل ذَرِّ الشَّرِّ، وَيُدَّخَرُ لَكَ مَثَاقِيلُ ذَرِّ الخَيْرِ حَتَّى تُوَفَّاهُ يَوْمَ القِيَامَة».

وقال الطَّبراني: «لم يَرْوِ هذا الحديث عن أيُّوبَ إلاَّ سِمَاك بن عطيَّة، ولا عن سِمَاك إلاَّ الهيثم، تفرَّد به: زياد ابن يحيى».

قلت: في إسناده الهيثم بن الرَّبيع العُقيلي وهو ضعيف.

الثَّالث: أنَّ الآية على عمومها، وأنَّ المؤمن يرى كلَّ ما قدَّم من خيرٍ وشَرٍّ، فيغفر الله له الشَّرَّ ويثيبه على الخير، بل يُبدِّل الله سيِّئاته حسنات كما جاء في الذِّكر الحكيم.

ودليل ذلك ما تقدَّم في هذا الوجه عن ابن عبَّاس بالنِّسبة للكافر.

وروى ابن جرير ـ أيضا ـ في «تفسيره» (568/24) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، أنَّه قال: أُنْزِلَتْ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ وأبو بكر الصِّدِّيق قاعد، فبكى حين أُنْزِلَتْ، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟» قال: يبكيني هذه السُّورَةُ، فقال له رسول الله ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

ولعلَّ من الأدلَّة الشَّاهدة لهذا الوجه ـ والله أعلم ـ ما جاء في «صحيح مسلم» (190) عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّة دُخُولاً الجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّار خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَة، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِه، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِه، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِه أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْه، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا» فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[6].

الوقفة الثالثة:

في الآية تنبيهٌ على أنَّ المؤمنَ لا يحقر من المعروف شيئًا، وكلُّ ما هو خيرٌ في دينه يَعمله، وإن قلَّ ودقَّ وصغُر في أعين النَّاس، فهو عند الله يُضاعَفُ ويكبر إن أراد به وجهه سبحانه، ففي «صحيح مسلم» (2626) عن أبي ذرٍّ، قال: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوف شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْه طَلْق»[7].

وفي «الصَّحيحين»[8] عن عديِّ بن حاتم، قال: ذكر النَّبيُّ ﷺ النَّارَ، فَتَعَوَّذَ منها وأَشَاحَ بوجهه، ثمَّ ذكر النَّارَ فَتَعَوَّذَ منها وأَشَاحَ بوجهه، ثمَّ قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

فالموفَّق من لم يزهد في عمل خيرٍ مهما صغُر في عينه وأعين النَّاس، ولو كان بابتسامة في وجه المسلم، فمن عجز وتكاسل عن الصَّدقة ولو بجزء من التَّمرة فلا يعجزْ عن كلمةٍ طيِّبةٍ يُدخل بها السُّرور على أخيه، أو يدفع عنه بها حزنه، فإن عجز عن هذا وذاك فليكُفَّ شرَّه عن النَّاس.

ففي «الصَّحيحين»[9] عن أبي موسى الأشعري عن النَّبيِّ ﷺ قال: «عَلَى كُلِّ مُسْلِم صَدَقَةٌ» قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يَعْتَمِلُ بِيَدَيْه فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قال: قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يُعِينُ ذَا الحَاجَة المَلْهُوفَ» قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يَأْمُرُ بِالمَعْرُوف أَوِ الخَيْرِ» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ».

وفي «الموطَّأ» (2849) عن مالك، قال: «بلغني أنَّ مِسْكِينًا استطعم عائشَةَ أُمَّ المُؤمنين وبين يديها عِنَبٌ، فقالت لإنسان: خذْ حبَّةً، فأعطه إيَّاها، فجعل ينظُرُ إليها ويعجبُ! فقالت عائشةُ: «أَتَعْجَبُ؟! كَمْ تَرَى فِي هَذِهِ الحَبَّةِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ».

وقال الحسن البصري: «يا ابن آدم! إنَّك ناظرٌ إلى عملك يُوزَنُ خيرُه وشرُّه»،

(6) انظر لهذه الأوجه والاحتمالات: «جامع البيان» للطَّبري (563/24 ـ وما بعدها)، «التَّفسير البسيط» للواحدي (230/24)، «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (131/12)، «المحرَّر الوجيز» (511/5)، «الجامع لأحكام القرآن» (421/22)، «البحر المحيط» لأبي حيَّان (498/8)، «التَّحرير والتَّنوير» (498/30)، و«دفع إيهام الاضطراب» للشَّنقيطي (ص375).

(7) «صحيح مسلم» (2626).
(8) البخاري (6023)، ومسلم (1016).
(9) البخاري (1445)، ومسلم (1008).

فـلا تحقـرَنَّ مـن الخـير شـيئًا وإن هو صَغُر؛ فإنَّك إذا رأيتَه سرَّك مكانُه»[10].

افعل الخير ما استطعتَ وإنْ

كان قليلاً فلن تُطيقَ بكلِّه

ومتى تفعل القليلَ من الخير

إذا كنتَ تـاركًـا لأقـلِّـه

الوقفة الرابعة:

فيها تحذيرٌ شديدٌ وترهيبٌ أكيدٌ من أعمال الشَّرِّ مهما دقَّت وصغُرت، وسيرى الإنسـان صـغيرَها وكبيرَهـا وفتيلَهـا ونقيرَهـا، فـلا يحقـر المسلم الذُّنـوبَ كلَّها، فرُبَّمَا يتسَـامَحُ في صغائرها بعَدَم تَدَارُكِهَا بالتَّوْبَة والالتفَات إليها غَفْلَةً منهَ فتكثر وتـزداد وربَّما كانت بريدًا للكبائر والموبقات، بل كُلُّ صَـغِيرَة بالنِّسْـبَة إلَى عَظَمَـة اللَّه وَكِبْرِيَائِـه كَبِـيرَةٌ، وَالقَلِيلَـةُ منْهَا كَثيرَة.

لـذا جـاء التَّحذير من الوقـوع فيها والإصـرار عليهـا وعـدم الالتفـات لها، فالله يُحصـي الأعمال خيرَها وشـرَّها، والإحصاءُ شديد.

ففي «سنن ابن ماجه» (4243) عن عائشـة قالت: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «**إِيَّاكِ وَمُحَقَّـرَاتِ الأَعْمَـالِ؛ فَـإِنَّ لَهَـا مِنَ اللهِ طَالِبًا**».

وفي «المسند» (22808) وغيره عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ ومُحقَّرات الذُّنُوب؛ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحقَّـرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَـوْمٍ نَزَلُوا فِي بطْنِ وادٍ فجـاءَ ذا بعُـود، وجـاءَ ذا بعُـود حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهم، وإنَّ مُحقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُها تُهْلكْهُ**».

ولهذا قيل: من العود إلى العود ثقلت ظهور الحطَّابين، ومن الهفوة إلى الهفوة كثرت ذنوب الخطَّائين.

وقال بعضهم:

ألا مَن لنفـسٍ بـالـذُّنـوب رَهـينـةٌ

قليلٌ على مسِّ العذاب اصطبارُها

كفى سَقَمًا بالـمرء يـا أمَّ عاصـمٍ

ركوبُ المعاصي عامدًا واحتقارُها

فعدمُ احتقار السَّـيِّئة واستصـغارها دليـلٌ على تعظيـم الله وإجلاله، والمؤمن لا يحقـر الذَّنـبَ وإن دقَّ؛ لنظـر الله لـه ومراقبتـه وإحصـاء أعمالـه عليـه ومسـاءلته، قال بلال بنَ سَـعْد رَحِمَهُ اللهُ: «لاَ تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الخَطِيئَة، وَلَكِنِ انْظُرْ مَنْ عَصَيْتَ»[11].

وقال الحسن البصري: «يا ابن آدم! إنَّك ناظرٌ إلى عملك يُوزن خيرُه وشـرُّه، فـلا تحقرَنَّ من الشَّـرِّ شـيئًا، فإنَّك إذا رأيتَه ساءك مكانه».

الوقفة الخامسة:

قال الإمام الباجي: «والحُمُرُ وإن لم تبلغْ مبلـغَ الخيلِ في الجهـاد فقد يحملُ عليهـا راحلتَـهُ مـن لم يسـتطع اقتنـاءَ الخيـل، ويحمـلُ عليهـا زادهُ وسـلاحه، ويتكسَّـبُ عليها ضُـعَفَاءُ النَّاس وأمَّا هي فيشـتريها ويسـتعين بهـا أهلُ الشِّـرك والبغـي علـى غـزو الإسـلام فيـوزَرُونَ بها، فهذا مسـتفادٌ من عمـوم الآية؛ لأنَّ اقتناءها لا يخلو أن يكون من عمل الخير أو من عمل الشَّـرِّ، وقـد أخبر تعالى مَنْ عمل شـيئًا منهما فإنَّه يَـراه، وهذا يدلُّ على التَّعلُّق بالعموم لأنَّه ﷺ تعلَّق بعموم الآية واستفاد منه حكمًا، وهذا يدُلُّ على وجوب التَّعلُّق به لغةً وشرعًا»[12].

الوقفة السادسة:

هـذه الآيـة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ فيهـا حثٌّ علـى جلـب المصالح كلِّهـا وزجـرٌ عن المفاسد كُلِّهَا.

فمـن تتبَّع مقاصدَ الكتاب والسُّـنَّة علـم أنَّ الله أمَـرَ بـكُلِّ خَيْرٍ دقِّـه وجلِّه، وزجـر عن كلِّ شـرٍّ قليله وكثـيره، وهذا عمـل جميـع الأنبيـاء ـ عليهم الصَّـلاة والسَّـلام ـ وكذلـك كانـت دعوتهم، كما قال ﷺ فيما رواه مسـلم في «صحيحه» (1844): «**...إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّـا عَلَيْـهِ أَنْ يَـدُلَّ أُمَّتَـهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُـهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَـرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ...**» الحديث.

فالخير كلُّ الخـير في متابعة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، والشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ في مخالفـة هديـه وشـريعته وطريقته، والحمـد لله الَّـذي تتـمُّ الصَّـالحات بنعمته.

❊❊❊



(10) «حلية الأولياء» (143/2).

(11) «الزُّهد» لابن المبارك (ص 24).

(12) «المنتقى» (325/4 ـ 326).

نفح الأريج من قصَّة جُرَيج

فتيحة بلعاليا
الجزائر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ مِنَ النَّاسِ في مهد إلاَّ عيسى ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وصَاحِبُ جُرَيْجٍ» قيل: يا نبيَّ الله، وما صاحبُ جُرَيْجٍ؟ قال: «فَإِنَّ جُرَيْجًا كَانَ رَجُلاً رَاهِبًا في صَوْمَعَةٍ له، وكَانَ رَاعِي بَقَرٍ يَأْوِي إلى أَسْفَلِ صَوْمَعَتِه، وكَانَت امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ تَخْتَلِفُ إلى الرَّاعِي، فَأَتَتْ أُمُّهُ يَوْمًا فقالت: يا جُرَيْجُ، وهو يُصَلِّي، فقال في نَفْسِهِ وهُوَ يُصَلِّي: أُمِّي وصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ، ثُمَّ صَرَخَتْ به الثَّانِيَةَ فقال في نَفْسِهِ: أُمِّي وصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ ثُمَّ صَرَخَتْ به الثَّالِثَةَ فقال: أُمِّي وصَلاَتِي؟ فَرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ فَلَمَّا لَمْ يُجِبْهَا قالت: لاَ أَمَاتَكَ اللَّهُ ـ يَا جُرَيْجُ ـ حَتَّى تَنْظُرَ في وَجْهِ المُومِسَاتِ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ فأُتِيَ المَلِكُ بِتِلْكَ المَرْأَةِ وَلَدت فقال: مِمَّنْ؟ قالت: مِنْ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَصَاحِبُ الصَّوْمَعَةِ؟ قالت: نَعَمْ، قال: اهْدِمُوا صَوْمَعَتَهُ وأْتُونِي به، فَضَرَبُوا صَوْمَعَتَهُ بالفُؤُوسِ حَتَّى وَقَعَتْ فَجَعَلُوا يَدَهُ إلى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ ثُمَّ انْطُلِقَ به فَمُرَّ به على المُومِسَاتِ فرآهُنَّ فتبسَّم وهُنَّ يَنظُرنَ إليه في النَّاسِ، فقال المَلِكُ: ما تَزْعُمُ هَذِهِ؟ قال: ما تَزْعُمُ؟ قال: تَزْعُمُ أَنَّ ولدَهَا منكَ، قال: أَنْتِ تَزْعُمِينَ؟ قالت: نعم، قال: أَيْنَ هذا الصَّغيرُ؟ قالوا: هذا في حجرها، فَأَقْبَلَ عليه. فقال: مَنْ أَبُوكَ؟ قال: رَاعِي البَقَرِ، قال المَلِكُ: أَنَجْعَلُ صَوْمَعَتَكَ من ذَهَبٍ؟ قال: لاَ، قال: مِنْ فضَّةٍ؟ قال: لاَ، قال: فَمَا نَجْعَلُهَا؟ قال: رُدُّوهَا كَمَا كَانَتْ، قال: فَمَا الَّذِي تَبَسَّمْتَ؟ قَالَ: أَمْرًا عَرَفْتُه، أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي، ثُمَّ أَخْبَرَهُم».



تخريج الحديث:

الحديث متَّفقٌ عليه، أخرجه البخاري في «كتاب العمل في الصَّلاة» [باب - إذا دعت الأمُّ ولدَها في الصَّلاة] (1206)، و«كتاب المظالم» [باب - إذا هدم حائطًا فليبن مثله] (2482)، و«كتاب الأنبياء» [باب - قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾] (3436)، وأخرجه مسلم في «كتاب البرِّ والصِّلة» [باب تقديم برِّ الوالدين على صلاة التَّطوُّع] (2550)، ورواه البخاري أيضا في الأدب المفرد (33) واللفظ له.

غريب الحديث:

□ المهد: أصله مصدر مَهَّدتُ الشَّيءَ أمهِّده إذا سوَّيتُه وعدَّلتُه، فمَهْدُ الصَّبيِّ هو كلُّ مَحلٍّ يُسوَّى له ويوطأ[1]، قد يكون سريرَه وقد يكون حجرَ أمِّه كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [سورة مريم]: «أي في حجرِ أمِّه»[2]، وقيل هو موضع الهدوء.

(1) انظر «الصِّحاح» (مهد)، و«لسان العرب» (3/410 مهد).
(2) «تفسير الطَّبري» (15/527 طبعة هجر).

□ صَوْمَعَة: هو البناء المرتفع المُحدَّد أعلاهُ، وزنُها فَوْعَلَة من صَمِعَت إذا دقَّقَت؛ لأنَّها دقيقةُ الرَّأس[3] وجاء في رواية أخرى: «في دَيْره».

□ والدِّير: هي الكنيسة، وتكون منقطعةً عن العمارة ينقطع فيها رهبانُ النَّصارى لتَعَبُّدِهِمْ وهو بمعنى الصَّومعة، فهي نحوُ المنارة ينقطعون فيها عن الوصول إليهم والدُّخول عليهم.

□ تختلف إلى الرَّاعي: أي تأتي إليه وتأوي.

□ المُومِسَات: ويقال: مَيَامِيس، مفردُها مُومِسَة - بضمِّ الميم الأولى وكسر الثَّانية - أي الزَّواني البغايا المجاهرات بذلك[4].

□ راهبًا: من رَهِبَ إذا خاف، والرَّاهب مَن اعتزل النَّاس إلى دير للتَّفرُّغ للعبادة، والجمع رُهبَان وأصله في النَّصارى[5].

□ الفؤوس: جمع فأس وهي كالمجرفة إلاَّ أنَّها من حديد يحفر بها ويقطع؛ وهي الآلة الَّتي يُقطَعُ بها الخشب[6].

(3) «لسان العرب» (8/206).
(4) «لسان العرب» (6/224).
(5) «المصباح المنير» (126)، «لسان العرب» (1/437).
(6) «لسان العرب» (6/158).

فوائد الحديث:

1. قوله: «**مَا تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ مِن النَّاسِ فِي مَهْدٍ إلاَّ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ**» جاء في رواية البخاري في الصحيح: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلاَّ ثَلاثَةٌ: عِيسَى ابنُ مَرْيَمْ...**»[7] وظاهر هذا الحصر يقتضي أن لا يوجد صغيرٌ تكلَّمَ في المهد إلاَّ هؤلاء الثَّلاثة؛ وهم عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، والصَّبيُّ المُتعَوِّذُ من الجبَّار، غير أنَّه قد رُوِيَتْ أحاديث تفيد أنَّه قد تَكلَّمَ غيرُ هؤلاء الثَّلاثة وهم كما جاء في حديث صهيب رضي الله عنه في قصَّة الصَّبيِّ الَّذي طرحته أمُّه في الأخدود وأنَّه كان في المهد[8]، وجاء في رواية عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما - أيضًا - عند أحمد وابن حبَّان والحاكم: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلاَّ أَرْبَعَةٌ**» وذكر منهم شاهدَ يوسفَ[9]، وذكر الضَّحَّاك في «تفسيره» أنَّ يحيى عليه السلام تكلَّم في المهد[10]، فهؤلاء سبعةٌ، وذكر - أيضًا - البغوي في «تفسيره» أنَّ إبراهيمَ الخليل عليه السلام تكلَّمَ في المهد، وفي «سير الواقدي» أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَكلَّمَ أوائلَ ما وُلِدَ، كما تكلَّم غيرُ هؤلاء ولذلك اختلف العلماء في توجيه قوله - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلاَّ ثَلاثَةٌ**».

فذهب بعضهم إلى انتفاء الحصر بهؤلاء الثَّلاثة إذ جاء في الأحاديث ما

(7) برقم (3436).
(8) أخرجه أحمد (23931)، ومسلم (3005) من حديث صهيب رضي الله عنه.
(9) رواه أحمد (2828)، والحاكم (3835)، وابن حبَّان (2904) من رواية عطاء بن السَّائب عن ابن جبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما مرفوعًا، وعطاء اختلط لذا ضعَّفَه الشَّيخ الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (4772).
(10) نسبه ابن حجر في «الفتح» (6/480) للثَّعلبي وهو في «تفسيره» (6/419).



يدُلُّ على كلام غيرهم؛ فيكون حكمًا غير محصور مستفادًا بمفهوم الحصر، وجاء في منطوق الأحاديث ما يدُلُّ على خلاف ذلك المفهوم، وإذا تعارض المنطوق والمفهوم كان المنطوق أولى بالتَّقديم عند عدم القدرة على الجمع بينهما؛ وعليه يبطل الحصر المذكور في الحديث.

وذهب بعض المُحدِّثين إلى أنَّه لا معارضة بين الحصر في الثلاثة وبين الأحاديث الأخرى؛ وذلك لأنَّ هذه الأحاديث إمَّا ضعيفةٌ وإمَّا باطلةٌ لا أصل لها، فلا تقاوم الحصر الوارد في الحديث.

وهناك من قال بأنَّ الجمع ممكن بين هذه الأحاديث كلِّها وبه ينتفي التعارض منها:

أ. ما قاله القرطبي، وهو أن يحمل الحصر على أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم بالزِّيادة[11] وهذا بعيد.

ب. أنَّ الثَّلاثة المذكورين هم الَّذين صرَّح أنَّهم تكلَّموا في المهد ولم يختلف فيهم، واخْتُلِفَ فيمن عداهم فقيل: إنَّهم كانوا كبارًا بحيث يتكلَّمون ويعقلون، ولا يُسلَّم صحَّة الجميع فيرتفع الإشكال.

ج. أن يكون كلامُ الثَّلاثة المذكورين مُقيَّدًا بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال لم يأت مُقيَّدًا به.

❋❋❋

2. قوله «إلاَّ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ»: وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بل آخر الأنبياء قبل مُحمَّد ﷺ؛ إذ لم يكن بينه وبين النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ نبيٌّ كما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة الصف]، وهو أحد أولي العزم من الرُّسل وهو آيةٌ من آيات الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المؤمنون]، فهو آيةٌ في حمله وفي ولادته، وهو الَّذي أنطقه الله ﷻ في المهد بقوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة مريم].

❋❋❋

3. وفيه دليلٌ على فضل نبيِّ الله عيسى عليه السلام؛ إذ جعل الله تعالى من آياته الكلامَ في المهد، وبه أَعْلَمَ الله ﷻ بني إسرائيل بأنَّه رسولُ الله إليهم.

❋❋❋

4. قوله «قيلَ: يا نبيَّ الله وما صاحبُ جريج؟»: فيه استحباب الاستكثار من العلم والسُّؤال عمَّا ينفع؛ إذ لولا سؤال الصَّحابة عن صاحب جُرَيْج لَمَا علمنا قصَّتَه وحكايتَه كما جاء في قصَّة موسى والخضر عليهما السلام، قال النَّبيُّ ﷺ «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا**»[12].

❋❋❋

5. قوله «فَإِنَّ جُرَيْجًا كَانَ رَجُلاً رَاهِبًا»: وفي رواية «وكان في بني إسرائيلَ رَجُلٌ يقال له جُرَيْجٌ»[13]، وجاء في حديث أبي سلمة عن أبي هريرة: «أَنَّ جُرَيْجًا كانَ رَجُلاً من بني إِسْرَائيلَ تَاجِرًا، وكان يَنْقُصُ مَرَّةً ويَزِيدُ أُخْرَى، فقال: ما في هَذه التِّجَارَة خَيْرٌ، لأَلْتَمِسَنَّ تجَارَةً هي خَيْرٌ منْ هَذه...»[14].

❋❋❋

6. ففيه دلالة على أنَّ جُرَيجًا كان من بني إسرائيل وأنَّه كان بعد عيسى عليه السلام وأنَّه كان من أتباعه؛ لأنَّه كان راهبًا والرُّهبان من أتباع عيسى عليه السلام.

❋❋❋

7. وفيه دليل على أنَّ جُريجًا لم يكن عالمًا بل كان راهبًا أي عابدًا؛ ولذلك جاء في رواية عن النَّبيِّ ﷺ «لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ عَالمًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّه خَيْرٌ منْ صَلاَته»[15].

❋❋❋

8. وفيه دليلٌ على فضل جُريج؛ إذ وصفه الرَّسول ﷺ بالعبادة، وأنَّه كان ممَّن آمن بعيسى عليه السلام، وأنَّه كان من العابدين.

❋❋❋

9. قوله «وكَانَ رَاعي بَقَر يأوي إلى أسفل صَوْمَعَته وكَانَتْ امْرَأَةٌ من أَهْل القَرْيَة تَخْتَلفُ إلى الرَّاعي»: فيه دليلٌ على أَنَّ مخالطةَ الأجنبيَّة كان مشينًا

---

(11) أي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر بما كان في علمه ممَّا أُوحيَ إليه في تلك الحال ثمَّ أعلمه الله تعالى بأشياء من ذلك فأخبرنا عندما علمه.

(12) رواه البخاري (122)، ومسلم (2380) واللَّفظ له.

(13) رواه البخاري (3436).

(14) أخرجه أحمد (9603)، وأبو طاهر المخلِّص في «المخلصيَّات» (416)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وإسناده جيِّد» (18060)، لكن ضعَّفه مُحقِّقوا «المسند» طبعة الرِّسالة.

(15) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (7496) وقال: «وهذا إسناد مجهول» وضعَّفه الشَّيخ الألباني في «الضَّعيفة» (1599).

في شرع عيسى عليه السلام؛ إذ لو لم يكن كذلك لما اختار أسفل الصَّومعة بعيدًا عن أنظار الخلق للتَّواعد؛ وفيه أنَّ هذا العمل كان مشينًا في بني إسرائيل.

❋❋❋

10 . قوله «وهُوَ يُصَلِّي»: فيه دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ كانت مَشروعةً معهودةً في شريعة عيسى عليه السلام، أي في شرعِ مَنْ قَبْلَنَا، ولا يلزم أن تكون كصلاتنا.

❋❋❋

11. قوله «فَقَالَ فِي نَفْسِه وهُوَ يُصَلِّي»: ليس في رواية «الصَّحيحين» «فِي نَفْسِه» فلعلَّها تكون زيادةً مُدرَجَةً من كلام أحد الرُّواة لمَّا عَلِمَ أنَّ الكلامَ في الصَّلاة في شريعتنا مُحرَّمٌ مُبطِلٌ للصَّلاة فهذا أمرٌ مُحتَمَل، ويحتمل صحَّة الرِّواية وأنَّه قال ذلك في نفسه[16]، كما يُحتَمَلُ أنَّه نطق به على ظاهره؛ لأنَّ الكلامَ كان مُباحًا عندهم كما كان مُباحًا في صدر الإسلام ثمَّ نُسِخَ، ولذلك قال ابن بطَّال: «هذا الحديث دليلٌ أنَّه لم يكن الكلام في الصَّلاة ممنوعًا في شريعة جُرَيْج، فلمَّا لم يأت من إجابتها بما هو مباحٌ له، استجيبت دعوةُ أمِّه فيه»[17].

وعلى فرض صحَّة الرِّواية؛ فإنَّ ذلك يدلُّ على أنَّ الكلامَ في الصَّلاة مُفسِدٌ للصَّلاة على كلِّ حال، وعلى فرض عدم صحَّتها لم يكن مُفسدًا للصَّلاة في شرع مَنْ قَبْلَنَا ثمَّ صار مُبطِلاً لها في شرعنا، إلاَّ ما كان سهوًا أو نسيانًا أو خطأً[18].

19 . قوله «فرَأَى أَنْ يُؤْثِرَ صَلاَتَهُ»: وفي هذا مسألةٌ، وهي إذا نادى الوالد ولده وهو يُصلِّي فهل يقطع صلاته من أجل إجابته أم لا؟

فالمسألة محلُّ تفصيلٍ بين إذا كانت فرضًا أو نفلاً:

فإذا كانت الصَّلاةُ فرضًا فلا يجوزُ قطعها بحال إلاَّ لضرورة، كمن رأى مثلاً غريقًا وجب إنقاذُه أو أعمى يخشى وقوعه في بئر، فكذلك إذا بلغ أحدُ الوالدين محلَّ الضَّرر ففي هذه الحالة يجوز قطع الصَّلاة لأجل ذلك، وخاصَّةً إذا كان الضَّرر ممَّا يجب دفعه في الحال؛ فإنَّه يقطع صلاتَه ثمَّ يستأنفها بعد ذلك، وأمَّا إذا لم يبلغ الوالدُ محلَّ الضَّرر والضَّرورة فلا يجوز قطعُ الصَّلاة من أجل إجابته؛ لأنَّ كلا الأمرين واجبٌ ولا يجوز ترك أحدهما من أجل إتمام الآخر، فلا يُترَكُ واجبٌ لأجل واجبٍ آخر، فإتمام الصَّلاة واجب وإجابة الوالد واجبةٌ ولا يمكن بتر أحدهما من أجل الآخر [إلاَّ بدليل]، ولأنَّ قطع الصَّلاة بلا عذر معصيةٌ وإجابةُ الوالد طاعةٌ ولا تجوز معصيةُ الله لطاعة مخلوق مهما كانت منزلته لكن يجوز مع ذلك الإشارة في الصَّلاة أو التَّسبيح للبيان بأنَّك في صلاةٍ أو رفع الصَّوت بالقراءة لبيان عذر عدم الإجابة فيُعْذَرُ الولد لأجل ذلك، ويتَجَنَّب بذلك غضبَ والده فلو رفع جُرَيْجٌ صوتَه وبيَّنَ لأمِّه أنَّه في صلاة ما دعت عليه.

وخالف في ذلك بعضُ الشَّافعيَّة فقالوا: إنَّ إجابةَ الوالد مُقدَّمةٌ في كلِّ حال، فرضًا كانت الصَّلاةُ أم نفلاً، وذهب إمام الحرمين إلى أنَّه إذا لم يَضِقْ وقتُ الصَّلاة وجبت إجابةُ الوالد، وأمَّا إذا ضاق الوقت لم تجب، غير أنَّ ما عليه جمهور العلماء خلاف ذلك.

وأمَّا إذا كانت الصَّلاة نافلةً، فإنَّ الحكمَ يختلف فيها باختلاف حال الوالدين؛ فإن كان الوالدان ليِّنَيِ الجانب وناداياك فيجوز إتمامُ الصَّلاة وعدم إجابتهما إذا علمت أنَّهما لا يغضبان إن علما أنَّك في صلاة، ويجوز إعلامُهما كما سبق، وأمَّا إن كانا لا يعذرانك ويريدان أن يكون حقُّهُمَا أعلى فالواجب في حقِّكَ أحدُ أمرَيْنِ: إمَّا تخفيف الصَّلاة وإجابتهما، وإمَّا قطع الصَّلاة؛ لأنَّ حقَّهُمَا أولى من صلاة النَّافلة والواجب يُقدَّم على النَّفل.

❋❋❋

12 . قولها «لا أَمَاتَكَ اللهُ يا جُرَيْجُ حتَّى تَنْظُرَ فِي وَجْه المُومِسَات»: في هذا دليلٌ على أنَّ الشَّفقَةَ الَّتي أودعها الله في الوالدين قد يوجَدُ ما يرفعها وذلك عند شدَّةِ الغضب[19]، فهذه المرأةُ دعت على ولدها من شدَّةِ غضبها.

❋❋❋

(16) ويدلُّ على ذلك تردُّدُه في قوله: «أُمِّي وصَلاَتِي» وأنَّه عَلِمَ أنَّ الكلامَ يقطع صلاته ولذلك لم يُجبْهَا.

(17) «شرح ابن بطَّال» (3/195).

(18) للحديث المعروف: «إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عن أُمَّتي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ ومَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْه» أخرجه ابن ماجه (2045) وصحَّحه الألباني في «المشكاة» لطرقه (6293)، ولحديث: «إنَّ هَذه الصَّلاَةَ لا يَصْلُحُ فيهَا منْ كَلاَم النَّاس شَيْءٌ» وليس فيه الأمر بإعادتها.

(19) «شرح رياض الصَّالحين» للشَّيخ العثيمين (3/75).



13 . وفيه دليلٌ على أنَّ أمَّ جُرَيْج كانت فاضلةً، ألا ترى كيف تحرَّزت في دعائها ولم تقل «حتَّى يفتتن بالمومسات» بل قالت «حتَّى يَنْظُرَ» وقد جاء في بعض الطُّرق[20] أنَّها لو دعت عليه أن يفتتن لفُتِنَ.

❋❋❋

14 . وفيه دليلٌ على فضل الأُمَّهات وشدَّة رحمتهنَّ بالأولاد ولو حين الغضب والدُّعاء بالسُّوء، ألا ترى كيف تحرَّزت أمُّ جُرَيْج في الدُّعاء على ولدها بأن يكون البلاءُ عليه أَخَفَّ ما يكون، فلولا شدَّةُ رحمة الأمَّهات لهلك الأولاد.

❋❋❋

15 . وفيه حسنُ الرِّفق والصَّبر من الأُمِّ نحوولدها؛ لأنَّ أُمَّ جُرَيْج مع غضبها منه لم تَدْعُ عليه إلاَّ بما دعت به، ولولا الرِّفقُ منها به لدعت عليه بأسوء من ذلك.

❋❋❋

16 . قوله في رواية مسلم: «وكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بحُسْنِهَا فقالت : إنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ»: فيه دليلٌ على أنَّ الزِّنا والفاحشة كانت مُنتَشِرةً في بني إسرائيل، وأنَّها من أسباب حصول العذاب لهم.

❋❋❋

17 . وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فتنةَ المرأة أشدُّ الفتن على الرِّجال، وأنَّ أشدَّ ما يَفْتَتِنُ به الرِّجالُ النِّسَاءُ، ولذلك كانت أخشى ما يخشاه النَّبيُّ ﷺ على أمَّته، وهي فتنةٌ كانت سائدةً في بني إسرائيل من البلاء الَّذي ابتلاهم الله به لسوء سريرتهم وخبث طويَّتهم.

❋❋❋

18 . قولهم في رواية أحمد (8071) وغيره «قَدْ شِئْنَا»: فيه دليلٌ على ما كان عليه بنو إسرائيل من البغض والعداوة لدين الله ومكرهم بالمؤمنين.

❋❋❋

19 . وفيه دليلٌ على أنَّ المرأةَ الجميلةَ الَّتي لا تستر نفسها فتنةٌ على الرِّجال؛ لأنَّ هذه المرأةَ ما افْتَتَنَ بها بنو إسرائيل إلاَّ لجمالها، والمرأة عمومًا قد تكون فتنةً، قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَا تَرَكْتُ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[21] لذلك حرَّم الله ﷻ كلَّ أسباب الافتتان، فأمر بغَضِّ البصر وخفض الصَّوت وعدم الخضوع به وحرَّمَ الخَلْوَةَ بالأجنبيَّة وأمر بالتَّستُّر أمام الأجانب، كلُّ ذلك منعًا لافتتان أحدهما بالآخر.

❋❋❋

20 . قوله في رواية أحمد ومسلم «فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا»: فيه دليلٌ على أنَّ العبادةَ والتَّقوى والإخلاصَ لله ﷻ خيرُ حافظٍ للمرء من الوقوع في الفتن، فقد حفظ الله ﷻ جُرَيْجًا من المرأة البَغِيِّ بعبادته وصدقه مع ربِّه.

❋❋❋

21 . قوله «فَأُوتِيَ المِلكُ بتلك المَرْأَة وَلَدَتْ»: أي من الزِّنا، فيه دليلٌ أنَّ الفاحشةَ كانت مُستَنْكَرَةً في جميع الشَّرائع إلاَّ ما حرَّفه اليهود والنَّصارى.

❋❋❋

22 . قوله «اهْدِمُوا صَوْمَعَتَهُ»: قال بعضُهم[22]: فيه دليلٌ على أنَّ بني إسرائيل كان من شرعهم أنَّ المرأةَ تُصَدَّقُ فيما تدَّعيه على الرِّجال من الوطء، وأنَّه لا ينفعه جحدُ ذلك إلاَّ بحجَّة تدفع الدَّعوى، فبمُجرَّد أن ادَّعت المرأةُ وقوعَ الفاحشة منه أمرَ الملك بهدم صَومَعَتِه من غير استبيان.

❋❋❋

23 . قوله «فَجَعَلُوا يَدَهُ فِي عُنُقِه ثُمَّ

---

(20) رواها البيهقي في «شعب الإيمان» (7878) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(21) أخرجه البخاري (5096)، ومسلم (2740) من حديث أسامة ابن زيد رضي الله عنهما.

(22) «فتح الباري» (6/483).

انْطَلَقُوا بِهِ»: فيه أنَّ مُرتكبَ الفاحشة لا تبقى له حُرمةٌ، فجُرَيْجٌ مع منزلته في بني إسرائيل إلاَّ أنَّه لمَّا وقعت عليه التُّهمةُ أسقطت مكانَتَه في بني إسرائيل ولم يُبْقِ له قَدْرًا.

❋❋❋

24 . قوله كما عندالبخاري ومسلم «فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى»: فيه دليلٌ على أنَّ الوضوءَ ليس من خصوصيَّات أُمَّةِ مُحمَّد ﷺ بل كان مَعرُوفًا في شرع مَنْ قَبْلَنا، وإنَّما خُصَّتْ هذه الأُمَّةُ بالغُرَّةِ والتَّحجيل.

❋❋❋

25 . وفيه استحبابُ الوضوء والصَّلاة عند الدُّعاء بالمُهمَّات وقصدًا لرفع البلايا والمصائب.

❋❋❋

26 . وفيه أنَّ الملجأَ والمَفْزَعَ في المصائب والأمور المُهمَّةِ إنَّما يكون إلى الله تعالى بالتَّوجه إليه، وأنَّ أعظَمَ ما يرفع البلايا الصَّلاةُ، وأنَّ أقرَبَ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو في صلاةٍ، وأخصُّ منه وهو ساجد.

❋❋❋

27 . قوله «فَأَقْبَلَ عليه فقال: مَنْ أَبُوكَ؟»: فيه دليلٌ على قُوَّة يقين جُرَيْج وصحَّة رجائه في الله ﷻ؛ لأنَّه اسْتَنْطَقَ المولودَ مع كون العادة أنَّه لا يَنْطق، ولولا صحَّةُ رجائه ويقينه بربِّه وأنَّه لن يَخْذُلَهُ ما استنطقه.

❋❋❋

28 . قوله «مَنْ أَبُوكَ»: كيف يقول جُرَيْجٌ «من أبُوك؟» ومعلومٌ أنَّ ولدَ الزِّنا لا يُلْحَقُ بأبيه، وإنَّما يُلحَقُ بأمِّه فلا نَسَبَ له من أبيه؟ وقد أقرَّ النَّبيُّ ﷺ قولَ جُرَيْج لولد الزِّنا من أبوك؟ ولذلك اختلف العلماء في توجيه هذه العبارة:

فقيل: لعلَّه كان في شرع مَنْ قَبْلَنَا أنَّ وَلَدَ الزَّاني يُلْحَقُ بأبيه نَسَبًا وشرعُنَا على خلافه.

أو يحتمل أنَّه لم يقصد حقيقةَ الأُبُوَّة، وإنَّما قصد جُرَيْجٌ: مِنْ ماءِ مَنْ أنت؟ فسمَّاه أبًا مجازًا.

أو أنَّ وَلَدَ الزَّاني يَلْحَقُ الزَّاني نسبًا؛ لأنَّ جُرَيْجًا قال: «من أبوك؟» فقال الصَّبيُّ: «أَبِي فُلَانٌ الرَّاعِي» وقد قصَّ النَّبيُّ ﷺ علينا هذه القصَّة للعبرة، فإذا لم يُنازِعِ الزَّاني في الولد واستلحق الوَلَدُ به؛ فإنَّه يَلْحَقُه؛ لأنَّه ولدُه قَدَرًا وإن لم يكن كذلك شَرْعًا، والإلحاق به أولى له من ضياع نسبه؛ لأنَّه إن لم يُعْرَفْ له أبٌ ضَاعَ نَسَبُه، وأمَّا إنْ كان له مُنَازِعٌ؛ فإنَّ الوَلَدَ لصاحب الفراش كما جاء في الحديث «**الوَلَدُ للفِرَاشِ وللعَاهِرِ الحَجَرُ**»[23] وخالف في ذلك أكثرُ أهل العلم ومنعوا لُحُوقَه بالزَّاني[24].

❋❋❋

29 . قوله «رَاعِي البَقَرِ» وفي الصحيحين «راعي الغَنَم»: في هذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا تعرَّف على الله في الرَّخاء عرَفَهُ في الشِّدَّة، فلمَّا كان جريجٌ رجلاً عابدًا تقيًّا لمَّا وقع في الشِّدَّة والكرب أنجاه الله تعالى، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى يجعل لأوليائه مخرجا عند ابتلائهم بالشَّدائد غالبًا، وهذا الحديث يُصَدِّقُ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ] وإنَّما يتأخَّر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيبًا لهم أو زيادةً لهم في الثَّواب.

❋❋❋



(23) أخرجه البخاري (2053)، ومسلم (1453) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(24) «شرح رياض الصَّالحين» للشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله (3/75).

30 ـ وفيه ـ أيضًا ـ إثباتٌ لوقوع كرامات الأولياء وهو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، وإنَّما يكون وقوعها بشروطها خلافًا للمعتزلة الَّذين أنكروا وقوعها عقلاً.

❋❋❋

31 ـ وفيه ـ أيضًا ـ أنَّ كرامات الأولياء قد تقع باختيارهم وطلبهم، وأنَّ هذه الكرامات قد تكون بخوارق العادات كما في قصَّة جُرَيْج؛ فإنَّ العادةَ تمنع نطقَ الوليد.

❋❋❋

32 ـ قوله «أَنَجْعَلُ صَوْمَعَتَكَ من ذَهَب؟ قال: لا، رُدُّوهَا كَمَا كَانَتْ»: فيه دليلٌ على أنَّ مَنْ تعدَّى على جدار أو دار وجب عليه أن يعيدَهُ على حاله إذا انضبطت صفته وتمكَّنت مماثلته ولا تلزم قيمةُ ما تعدَّى عليه، وقد بوَّب البخاري رحمه الله على حديث جُرَيْج: «باب من هدم حائطًا بنى مثله» وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، فإن تعذَّرت المماثلةُ رجع إلى القيمة، وهو مذهب الشَّافعي وأهلِ الظَّاهر في كلِّ مُتلَف، خلافًا للمشهور من مذهب مالك وأصحابه أنَّ فيه وفي سائر المُتلَفات المضمونات القيمة إلاَّ ما يرجع إلى الكيل والوزن بناءً منهم على أنَّه لا تتحقَّق المماثلة إلاَّ فيهما.

❋❋❋

33 ـ فيه دليلٌ على صبر جُرَيْج وحلمِه وسَعَةِ صدره حيث إنَّه لم ينتصر لنفسه على ما فعله به بنو إسرائيل ولم يُكلِّفْهُم شَططًا ببناء صومعته من ذهب أو فضَّة، وإنَّما رضي بسابق الحال ممَّا يدلُّ على شدَّةِ قناعته فجمع بذلك بين فضل العبادة وحسن الخلق، ولذلك أخذ بنو إسرائيل بعد ذلك بتقبيله ـ كما جاء في الصحيحين ـ لِمَا ظهر لهم من حسن صدقه وحِلْمِه ومحاسن خُلُقِه.

❋❋❋

34 ـ قوله «أَدْرَكَتْنِي دَعْوَةُ أُمِّي»: فيه دليلٌ على وقوع دعوة الوالد على ولده ـ ولو كان الولد صالحًا ـ إذا فعل ما يستوجب غضبهما.

❋❋❋

35 ـ وفيه دليلٌ على وجوب سعي الولد لإرضاء الأُمِّ واجتناب ما يُغَيِّر قلبها واغتنام صالح دعوتها.

❋❋❋

36 ـ ومن الفوائد الأصوليَّة في هذا الحديث أنَّه إذا اجتمعت الأمور المُهِمَّات وتعارضت فإنَّه يبدأ بالأهمِّ.

ـ وأنَّه إذا تعارضَ الواجب والمستحبُّ قُدِّمَ الواجب على غيره.

ـ وفيه أنَّ الواجبَ لذاته مُؤَكَّدٌ ومُقدَّمٌ على الواجب لغيره، ويظهر هذا المعنى من خلال كون إجابة الوالدين وبرِّهما واجبٌ لذاته ثابتٌ بالنُّصوص الكثيرة والشُّروع في صلاة النَّفل إنَّما ينقلب واجبًا ـ في قول من يقول إنَّ المُستحَبَّ ينقلبُ واجبًا ـ فكانت تلك الصَّلاة واجبةً بالشُّروع بمعنى واجبةٌ لغيرها، ولولا ذلك لما تحيَّر جُرَيْجٌ في إجابة أمِّه.

ـ وتمسَّك بالحديث من يقول إنَّ المُستحَبَّ لا يلزم بالشُّروع، ولذلك دعت أمُّ جُرَيْج على ولدها؛ لأنَّ حقَّها مُقدَّمٌ على الشُّروع في المُستحَبِّ.

هل شرع من قبلنا شرع لنا فيه تفصيل:

ـ إن كان شرعُ مَنْ قَبلَنَا مخالفًا لشرعنا فهو منسوخٌ بشرعنا؛ لأنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ هي آخر الشَّرائع وناسخةٌ لها.

ـ وإن كان شرعُ مَنْ قَبْلَنَا مُوافِقًا لشرعنا فهو حجَّةٌ لموافقته لشرعنا.

ـ وإن كان شرعُ مَنْ قَبْلَنَا مُتفرِّدًا بالحكم من غير مجيء للموافق أو المخالف من شَرْعِنَا فالظَّاهر أنَّه حجَّةٌ؛ لحكاية النَّبيِّ ﷺ قصَّته.

وبسط المسألة في كتب الأصول.

ـ وفيه دليلٌ على أنَّ الإسرائيليَّات ليست دائمًا باطلةً بل فيها ما هو صحيح ويوافق شرعَنا.

ـ وفيه جوازُ الأخذ بالأشدِّ في العبادة لمن علم من نفسه القُوَّةَ على ذلك.

❋❋❋

37 ـ في الحديث دليلٌ على فضل العلم على العبادة؛ إذ لو كان جُرَيْجٌ عالمًا لعلم أنَّ إجابتَهُ أُمَّهُ أَوْلَى من صلاته.

والعلم عند الله سبحانه وتعالى.



عباس ولد عمر
إمام خطيب. الجزائر

إيقاظ همم المؤمنين لإنكار سبِّ ربِّ العالمين

إنَّ ظاهرة سبِّ الله تعالى كانت محصورةً لا تكاد تعرف إلاَّ عند فئة قليلة ممَّن رقَّ دينهم، ولكنَّه للأسف الشَّديد كثر مقترفوها في السَّنوات الأخيرة، وأصبحوا يجاهرون بها بعد ما كانوا مستترين، فبلغ الأمر إلى ما يعلم الجميع؛ أصبح للنَّاس فنون وألوان من السَّبِّ، لا فرق في ذلك بين الصَّغير والكبير، والذَّكر والأنثى، فإلى الله المشتكى من هذا المنكر العظيم، والباطل الشَّنيع، وتعالى ربُّنا عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا.

إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب، تحارُ منه العقول، وتتعطَّل الألباب؛ فهل يُعقل أن يكون الرَّجل ممَّن يقول: «لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله»، ثمَّ يتجرَّأ على سبِّ ربِّه ـ عزو جل ـ أو سبَّ دينه؟!! كيف ونحن نرى كثيرًا من الكفَّار على ما هم عليه من الكفر، لا يتجرَّأ الواحد منهم على سبِّ الله ـ عزو جل ـ بل إنَّهم يزعمون محبَّة الله، والتَّقرُّب إليه؛ ثمَّ يأتي من نشأ بين المسلمين، ولقِّن شهادة التَّوحيد قبل التَّمييز، إذا غضب لأتفه الأسباب، وأحقر الأشياء، لا يجد أمامه ما يذهب به غيظه، ويبرز به شجاعته إلاَّ التَّهجُّم والتَّطاول على ذات الله سبحانه، فالله المستعان.

والَّذي دفعني لكتابة هذه الكلمات: تذكير النُّفوس بخطورة هذا الأمر، وتنبيهها على سوء عواقبه، وإيقاظ الهمم حتَّى تعمل على إزالة هذا المنكر واستئصاله، «تعظيمًا لله، وإجلالاً لذكره، وإعلاءً لكلمته، وضبطًا للنُّفوس أن تتسرَّع إلى الاستهانة بجنابه، وتقييدًا للألسن أن تتفوَّه بالانتقاص لحقِّه»[1]، ولا يكون ذلك إلاَّ بتضافر جهود الجميع، والحزم في مواجهة هذا الجرم الفظيع؛ لأنَّه ما فشا في النَّاس منكر إلاَّ بسكوت أهل الخير والصَّلاح، ولا ظهر أهل باطل إلاَّ بترك النُّصح والإيضاح؛ وحتَّى يدرك النَّاس عظم هذا الجرم، وخطر هذا الذَّنب، فليعلم أنَّ إجماع المسلمين وأئمَّتهم قد انعقد على أنَّ الَّذي يسبُّ الله أو يسبُّ دينه أو نبيَّه، أو يحتقر أو يتنقَّص أو يستخفَّ بالله أو نبيِّه، فهو كافرٌ كفرًا أكبر، مرتدٌّ، خارج عن زمرة أهل الإيمان، لا حظَّ له في دين الإسلام، لا فرق بينه وبين يهوديٍّ، أو نصرانيٍّ، أو مجوسيٍّ، أو أيِّ صاحب دين آخر.

(1) «الصَّارم المسلول على شاتم الرَّسول» (ص353)، ط. الرِّسالة، وما سيأتي من النُّقول من كلام شيخ الإسلام، فهي من هذا الكتاب، وحتَّى لا أثقل الحواشي بتكرار العزو، سأكتفي بذكر الصَّفحة أوَّل كلِّ نقل، أو عقبه مراعاة للسِّياق.

قال إسحاق بن راهويه: «وقد أجمع المسلمون أنَّ من سبَّ الله ـ عزو جل ـ، أو سبَّ رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا ممَّا أنزل الله تعالى، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله تعالى، أنَّه كافرٌ بذلك وإنْ كان مُقرًّا بكلِّ ما أنزل الله»[2].

قال ابن حزم: «وأمَّا سبُّ الله تعالى فما على ظهر الأرض مسلمٌ يخالف في أنَّه كفرٌ مجرَّد؛ إلاَّ أنَّ الجهميَّة والأشعريَّة ـ وهما طائفتان لا يعتدُّ بهما ـ يصرِّحون بأنَّ سبَّ الله تعالى وإعلان الكفر ليس كفرًا؛ قال بعضهم: ولكنَّه دليلٌ على أنَّه يعتقد الكفر، لا أنَّه كافرٌ بيقين بسبِّه الله تعالى؛ وأصلهم في هذا أصل سوء، خارج عن إجماع أهل الإسلام...»[3].

قال القاضي عياض: «لا خلاف أنَّ سابَّ الله تعالى من المسلمين كافرٌ حلال الدَّم، واختلف في استتابته»[4].

ويكفر المسلم بالسبِّ جادًّا كان أو مازحًا، يقول ابن قدامة: «ومَنْ سَبَّ الله تعالى كَفَرَ، سواء كان مازحًا أو جادًّا، وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسله أو كتبه»[5].

وكون هذا العمل كفرًا مُحبطًا للإيمان، لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، كما تقدَّم من كلام ابن حزم، فقد عُلِمَ بالضَّرورة من دين الإسلام؛ ومستند الإجماع المنقول عن أهل العلم آنفًا، آيات من كتاب الله ـ عزو جل ـ، وأحاديث من سنَّة نبيِّه ﷺ.

أمَّا الآيات فمنها:

ـ قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة التوبة]؛

فقد حكم الله سبحانه في هذه الآية بكفر من استهزأ به، أو برسوله، أو بآياته، ولم يشفع لأولئك المنافقين المستهزئين اعتذارهم أنَّهم إنَّما كانوا يخوضون ويلعبون؛ هذا حكم الاستهزاء، وأين السَّبُّ من الاستهزاء، لا ريب أنَّ بينهما بونًا شاسعًا، ذلك أنَّ المستهزئ لا يعتقد ما يتلفَّظ به، كما هو شأن السَّابِّ، ولكن قد تكون له دوافع تدعوه إلى ذلك، كما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: كنَّا نتحدَّث حديث الرَّكب، نقطع به عناء الطَّريق؛ فدلَّت الآية بطريق الأولى أنَّ السَّبَّ كُفرٌ بالله سبحانه، قال شيخ الإسلام (ص29): «وهذا نصٌّ في أنَّ الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، فالسَّبُّ المقصود بطريق الأولى».

ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الأحزاب]

قال ابن تيمية (ص53): «والسَّبُّ من أذى الله ورسوله باتِّفاق المسلمين، بل هو أخصُّ أنواع الأذى»، ومع هذا فالله «سبحانه لا تلحقه بالسَّبِّ غضاضة ولا معرَّة، وإنَّما يعود ضرر السَّبِّ على قائله، وحرمته في قلوب العباد أعظم من أن يهتكها جرأة السَّابِّ» (ص350)، ودلالة الآية على كفر السَّابِّ من وجهين:

الأوَّل: قال شيخ الإسلام (ص34): «أنَّه ذكر أنَّه لعنهم في الدُّنيا والآخرة، وأعدَّ لهم عذابًا مهينًا، واللَّعن: الإبعاد عن الرَّحمة، ومن طرده عن رحمته في الدُّنيا والآخرة لا يكون إلاَّ كافرًا، فإنَّ المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات...».

وقال أيضًا (ص35): «فبيَّن أنَّه سبحانه أقصاه عن رحمته في الدَّارين، وسائر الملعونين ـ يعني في النُّصوص الَّتي ورد فيها اللَّعن على بعض الآثام ـ إنَّما قيل فيهم: لعنه الله، أو عليه لعنة الله، وذلك يحصل بإقصائه عن الرَّحمة في وقت من الأوقات، وفرق بين من لعنه الله لعنة مؤبَّدة عامَّة، ومن لعنه لعنًا مطلقًا».

الوجه الآخر: في قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، «ولم يجئ إعداد العذاب المهين في القرآن إلاَّ في حقِّ الكفَّار...» بخلاف «العذاب العظيم فقد جاء وعيدًا للمؤمنين... ذلك لأنَّ الإهانة إذلال وتحقير وخزي، وذلك قدر زائد على ألم العذاب، فقد يعذَّب الرَّجل الكريم ولا يُهان» [«الصَّارم»: (ص40 ـ 41)]، وقد توسَّع شيخ الإسلام كعادته في إيراد شواهد ذلك من آيات الكتاب العزيز، وقد حذفتها طلبًا للاختصار، وأجاب عمَّا قد يعترض به عليه، فراجعه فإنَّه مهمٌّ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

قال شيخ الإسلام (ص352): «ومن المعلوم أنَّهم كانوا مشركين مكذِّبين معادين لرسوله، ثمَّ نهي المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبِّهم الله، فعلم أنَّ سبَّ الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادى»، فدلَّ

---

(2) ذكره ابن عبد البرِّ في «الاستذكار» (150/2)، ط. الكتب العلميَّة.

(3) «المحلَّى» (411/11)، ط. دار التُّراث.

(4) «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى» (ص579)، ط. الجزائريَّة.

(5) «المغني ـ مع الشَّرح الكبير» (113/10)، ط. الكتب العلميَّة.



علـى أنَّ السَّـبَّ قـدرٌ زائـد علـى مجرَّد الكفر، يقول شـيخ الإسلام (ص352): «وأيضًا فإنَّ السَّبَّ ذنبٌ منفرد عن الكفر الَّذي يطابق الاعتقاد، فإنَّ الكافر يتديَّن بكفـره، ويقـول: إنَّه حقٌّ ويدعـو إليه وله عليـه موافقـون، وليـس مـن الكفَّار من يتديَّن بما يعتقده اسـتخفافًا واسـتهزاءً وسـبًّا لله، وإن كان في الحقيقـة سـبًّا، كمـا أنَّهم لا يقولون: إنَّهم ضـلَّال جهَّال معذَّبون أعداء الله، وإن كانوا كذلك.

وأمَّا السَّـابُّ؛ فإنَّه مظهـر للتنقُّص والاستخفاف والاسـتهانة بالله، منتهك لحرمتـه انتهـاكًا يعلـم مـن نفسـه أنَّه منتهك مسـتخفٌّ مسـتهزئ، ويعلم من نفسـه أنَّه قد قال عظيمًا، وأنَّ السَّموات والأرض تـكاد تنفطر مـن مقالته وتخرُّ الجبـال، وأنَّ ذلـك أعظم مـن كلِّ كفر، وهـو يعلم أنَّ ذلك كذلك،... فلا شـبهة تدعوه إلى هذا السَّـبِّ، ولا شـهوة له في ذلك، بل هو مجرَّد سـخريَّة واسـتهزاء واستهانة وتمرُّد على ربِّ العالمين، تنبعث عن نفس شـيطانيَّة ممتلئة من الغضب، أو مـن سـفيه لا وقـار لله عنـده»، وإذا كان السَّـبُّ إذا صـدر مـن الكافر يكون أعظـم من كفره الَّـذي يتديَّن بـه، فإنَّه إذا صدر من المسـلم يكون أشنع وأقبح، ويكون المسلم السَّابّ أسوء حالاً، وأغلظ كفرًا مـن الكافر، «فإنَّ كلَّ ما يفرض في الكافـر من غلظ السَّـبِّ فهو في المسـلم وزيادة» [«الصَّـارم» (صـ197)]، ذلك أنَّ الإيمان يقتضـي محبَّة الله وتعظيمه، فلمَّا عمل بما يناقضـه، ويضـادّه من كلِّ وجه، كان شـرًّا مـن الكافر الَّـذي ليس معـه إيمان يحجزه عن السَّـبِّ، قال ابن تيميـة رَحِمَهُ اللهُ (صـ349): «لأنـه بذلـك ـ يعني المسلم السَّـاب ـ كافر مرتدٌّ، وأسوأ من الكافـر، فـإنَّ الكافر يعظِّـم الرَّبَّ، ويعتقـد أنَّ ما هو عليه من الدِّين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبَّة له».

ومـن الأحاديث الَّتي تـدُلُّ على كبير خطـر السَّـبِّ، وعظيـم وزره عنـد الله ـ عزو جل ـ قولـه ﷺ: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَـة مَا يَتَبَيَّنُ مَا فيهَا، يَهْوِي بهَا في النَّار أَبْعَد مَا بَيْنَ المشْرِق وَالمغْرِب**»[6] وفي رواية: «**فَيَهْوِي بها في نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»[7].

ـ وعن بلال بـن الحارث رضي الله عنه عن النَّبـيِّ ﷺ قـال: «**إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَـة مِـنْ سَخَطِ الله، مَا يظـنُّ أَنْ تَبْلُـغَ مَـا بَلَغَتْ، فَيَكْتُـبُ اللهُ عَلَيْـه بهَـا سَخَطَهُ إلى يَوْم يَلْقَاهُ**»[8].

فهـذا الوعيـد الشَّـديد، والتَّهديـد الأكيـد، المذكور في هـذه الأحاديث رتَّب على كلمـة لم يتبيَّن فيهـا قائلها، ولم يرَ بها بأسًـا، ولم يظنَّ أن تبلغ به ما بلغت؛ فكيف بكلمة السَّـبِّ الَّتي هـي كلمة كفر ظاهـرة بيِّنـة، نكرانهـا معلوم بالشَّـرع والعقـل والطَّبـع، لا يختلـف فيهـا مـن النَّاس رجلان، أبرارًا كانـوا أم فجَّارًا؛ فدلَّ هـذا علـى أنَّ السَّـابَّ وعيده أعظم وأشـدّ عنـد ربِّه يـوم القيامة مـن هذا المذكور في الأحاديث.

ألا فليحـذر كلّ مسلم يخاف مقامه بين يدي ربِّه من الاستهانة بكلمة الكفر، فتحبـط أعمالـه وهـو لا يشـعر، وتكون عبادته كسـراب بقيعة يحسـبه الظَّمآن ماء، حتَّى إذ جاءه لم يجده شـيئًا، ووجد الله عنـده فوفَّـاه حسـابه، والله سـريع

(6) رواه البخاري (6477)، ومسلم (2988) عن أبي هريرة ا، وليس عند البخاري: «المغرب».
(7) رواه التِّرمذي (2314)، وابن ماجه (9370)، واللَّفظ له، وهو حديث صحيح.
(8) رواه مالك (ص838)، وأحمد (15852)، والتِّرمذي (2319)، وابن ماجه (3969)، وهو صحيح.

الحساب، والَّذي لا يكاد ينقضي منه العجب أن نرى هذه الظَّاهرة القبيحة قد امتدَّ شرُّها، واتَّسع ضررها، حتَّى غدا يقترفها بعض المصلِّين، ممَّن يتوجَّه إلى ربِّه بالرُّكوع والسُّجود، والذِّكر والدُّعاء، ولم يعلم أنَّه يكون بذلك كالَّتي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثًا؛ وبعض النَّاس يهوِّن من أمر السَّبِّ، ويعتذر لنفسه أنَّه لم يقصد سبَّ الله، إنَّما تلفَّظ بذلك بسبب الحمية والغضب، وهؤلاء ما مثلهم إلاَّ كمثل من قال الله تعالى فيهم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: 74]، فقد اعتذر قبلهم المنافقون، ولم يكن لهم عند الله عذر؛ ونحن نقول لمن يزعم ذلك: لو كنت أمام صاحب سلطان وبطش، أكنت تتجرَّأ على سبِّه؟ والله إنَّنا لنحلف غير حانثين ـ إن شاء الله تعالى ـ أنَّك لا تفعل مهما فعل بك؛ لأنَّ خشية سطوته تمنعك من ذلك، فالاعتذار بعدم القصد لسبِّ الله ﷻ لا يكون عذرًا إطلاقًا، ما دام أنَّه قصد كلمة السَّبِّ[9]، وحتَّى لو سلَّمنا أنَّه لم يقصد تنقُّص الله، فقصده لكلمة السَّبِّ يدلُّ على استخفافه واستهانته بربِّه، وخلوِّ القلب من مهابته وتعظيمه، وعدم الخوف من بطشه وعقابه؛ ثمَّ إنَّ قائل الكفر المختار له، لا يمكن أن يكون في الباطن مؤمنًا، يقول شيخ الإسلام (ص334 ـ 335): «فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة، عامدًا لها، عالمًا بأنَّها كلمة كفر، فإنَّه يكفر بذلك ظاهرًا و باطنًا، ولا يجوز أن يُقال: إنَّه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا، ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام، قال سبحانه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦ ﴾ [النحل]، ومعلوم أنَّه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط؛ لأنَّ ذلك لا يكره الرَّجل عليه، وهو قد استثنى من أكره ولم يرد من قال واعتقد؛ لأنَّه استثنى المكره، وهو لا يكره على العقد والقول، وإنَّما يكره على القول فقط، فعلم أنَّه أراد من تكلَّم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، وأنَّه كافر بذلك، إلاَّ من أُكره وهو مطمئنٌّ بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرًا من المكرهين فإنَّه كافر أيضًا، فصار كلُّ من تكلَّم بالكفر كافرًا، إلاَّ من أُكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقال تعالى في حقِّ المستهزئين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ ﴾ [التوبة: 66]، فبيَّن أنَّهم كفَّار بالقول، مع أنَّهم لم يعتقدوا صحَّته؛ وهذا باب واسع، والفقه فيه ما تقدَّم، من أنَّ التَّصديق بالقلب يمنع إرادة التَّكلُّم وإرادة فعل فيه استهانة واستخفاف، كما أنَّه يوجب المحبَّة والتَّعظيم، واقتضاؤه وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنَّة الله في مخلوقاته، كاقتضاء إدراك الموافق للَّذَّة، وإدراك المخالف للألم، فإذا عدم المعلول كان مستلزمًا لعدم العلَّة، وإذا وجد الضِّدّ كان مستلزمًا لعدم الضِّدِّ الآخر، فالكلام والفعل المتضمِّن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التَّصديق

---

(9) مع التَّنبيه هنا على أنَّ عدم القصد من موانع التَّكفير، ولكن صورته أن يزلَّ لسان المرء فتجري عليه كلمة سبٍّ، لم يكن قَصَدَها، ولا خطر على باله التَّكلُّم بها، أمَّا ما نحن فيه، فالقائل مختار لكلمة السَّبِّ، لكنَّه ينازع في كونه لم يقصد بها تنقُّص الله عزَّ وجل، ففرق بين الصُّورتين؛ فتأمَّل!

النَّافـع ولعـدم الانقيـاد والاستسـلام، فلذلك كان كفرًا.

واعلـم أنَّ الإيمـان وإن قيـل هـو التَّصديـق، فالقلـب يصـدق بالحـقِّ، والقـول يصـدق مـا في القلـب، والعمل يصدق القول، والتَّكذيب بالقول مستلزم للتَّكذيب بالقلـب، ورافع للتَّصديق الَّذي كان في القلـب، إذ أعمـال الجوارح تؤثِّر في القلـب، كما أنَّ أعمـال القلب تؤثِّر في الجوارح، فأيُّهما قام به كفر تعدَّى حكمه إلى الآخـر، والكلام في هذا واسع، وإنَّما نبَّهنا على هذه المقدِّمة».

وخلاصـة القول: أنَّ سـبَّ الله ـ عزو جـل ـ كفـرٌ في الظَّاهر والباطـن، وسواء استحلَّ المتكلِّم ذلـك أم لم يستحلَّ، قال شيـخ الإسلام (ص327): «إنَّ سبَّ الله أو سبَّ رسوله كفرٌ ظاهرًا وباطنًا، وسواء كان السَّابُّ يعتقد أنَّ ذلك محرَّم، أو كان مستحـلاًّ له، **أو كان ذاهلاً عن اعتقاده**، هـذا مذهب الفقهاء وسائـر أهل السُّنَّة القائلين بأنَّ الإيمان قول وعمل».

ثـمَّ قـال (صـ328 ـ 329): «وهذا موضع لابدَّ مـن تحريره، ويجب أن يعلم أنَّ القول بأنَّ كفر السَّابّ في نفس الأمر، إنَّما هـو لاستحلاله السَّـبَّ زلَّة منكرة، وهفوة عظيمـة، ويرحم الله القاضي أبا يعلـى قد ذكـر في غير موضع مـن كتبه مـا يناقض ما قاله هنـا، وإنَّما أوقع من وقع في هـذه المهواة، ما تلقَّـوه من كلام طائفـة مـن متأخِّـري المتكلِّمـين، وهـم الجهميَّـة الإناث، الَّذيـن ذهبوا مذهب الجهميَّة الأولى، في أنَّ الإيمان هو مجرَّد التَّصديـق الَّذي في القلب، وإنْ لم يقترن بـه قـول اللِّسـان، ولم يقتضِ عملاً في القلب ولا في الجوارح».

أقـول بعد هـذا التَّقريـر البديع: إنَّ أمَّـة فشا فيها مثل هذا المنكر الشَّنيع، لا ينبغـي أن يستغرب أهلها تتابع النَّكبات، وتوالي العقوبات، من زلازل وفيضانات، وأمراض مهلـكات، وتسلُّـط للأعداء، وإلقاء للعـداوة والبغضاء، فليس لنا بعد ذلـك إذا نزلـت بساحتنـا المصيبـة أن نقول أنَّى هـذا؛ لأنَّنا نعلم أنَّنا أوتينا من أنفسنـا، وأخذنـا بما اجترحـت أيدينا؛ ألا فليعلـم النَّـاس أنَّـه لا عاصـم اليوم من أمر الله إلاَّ مـن رحم، ولا نجاة لهم من عذاب الله وسخطه إلاَّ بالفرار إليه، وذلـك بنصرتـه ونصرة دينـه ونصرة نبيِّـه ﷺ، وبالعمـل جاهديـن لتغييـر هـذا المنكـر، وإزالتـه ووأده، وإلاَّ أخذنا الله سبحانـه بالمزيـد مـن العقوبـات: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ [سورة الذاريات].

فالواجـب عظيـم، والمسؤوليَّة جسيمـة، والخطـب داهـم، والسَّفينـة ستغـرق، إنْ لم نتـدارك الأمر قبل فوات الأوان، بالتَّوبة إلى الله ﷻ من التَّقصير في الإنكار، وبالأخذ على أيدي الظَّالمين، دعوةً وإرشـادًا، نصيحةً وبيانًا، تغييرًا و بلاغًا؛ وكلُّ مسلم مطالب أن يقوم بذلك بحسبـه، فالإمام في مسجـده، والدَّاعية بقلمـه، والمعلِّـم في مدرستـه، والرَّجـل في أولاده وأهـل بيتـه، والعامل في عمله، والتَّاجر في سوقه؛ بهذا نتَّقي عذاب الله وسخطـه؛ والمجاهـرة بالوقيعـة في ربِّنا سبحانـه لابدَّ أن تكون أشدَّ علينا من كلِّ منكـر آخـر إن كنَّا مؤمنين، يهـون أمام استئصالهـا بذل الأنفس والأموال، حتَّى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يجهر أحد في ديارنـا بشيء من أذى ربِّنا، ولو سبَّب لنـا ذلك بعض الأذى؛ لأنَّ مفسدة الكفر ليـس بعدهـا مفسـدة، فكيـف بمفسدة السَّـبِّ، ولا شكَّ أنَّ ما نلقاه من الأذى في سبيل ذلك أهون علينا من عذاب الله.

أمَّـا إن قصَّرنـا ولم نفعـل؛ فإنَّـه يوشك أن يعمَّنا الله بالمزيد من العذاب، فمعلوم مـن قواعد الشَّـرع أنَّ العقوبات إذا نزلـت، فإنَّهـا تعمُّ ولا تقـع على أهل العصيـان وحدهـم، لا سيمـا إذا قصَّر أهل الصَّلاح في النَّصيحة والإنكار، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [سورة الأنفال].

❊ ❊ ❊

حكم سجود التِّلاوة

خليف الهلالي

الجزائر

إنَّ من أفضل الأعمال والقربات، سجودَ العبدِ بين يدي ربِّ الأرض والسَّموات[1]، فهو من أعظم دلائل العبوديَّة، وأجلِّ مظاهر الاستكانة والضَّراعة، وأفضلِ أثواب الافتقار والطَّاعة، وهو أوَّلُ العبادات الَّتي ابتَلَى اللهُ بها خلقَه، فامتثل الملائكةُ وعصى إبليس ربَّه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سُورَةُ البَقَرَة]،

ولهذا لم يصلح السُّجودُ إلاَّ لله، فمَنْ سَجَدَ لغير الله فهو مُشْرِكٌ، ومن لم يسجُدْ له فهو معانِدٌ مستكبرٌ هالِكٌ.

فإذا اقترنت هذه العبادة بتلاوة كلام الله، وكان سببًا لها تأثَّرَتْ بها نفوسُ المؤمنين، ولانت لها قلوبهم، فخرُّوا ساجِدين لله، مُعفِّرين وجوهَهم، مُمرِّغين أنوفَهم، مُسبِّحين بحمد ربِّهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سُورَةُ السَّجْدَة].

(1) ذكَرَ شيخ الإسلام ابن تيمية فضلَ السُّجود في مَعرَض المفاضلة بينه وبين القيام فقال: «فإنَّ جنسَ السُّجود أفضلُ من جنس القيام من وجوه مُتعدِّدة»، ثمَّ سردها رَحِمَهُ اللهُ، انظر: «مجموع الفتاوى» (71/23) وما بعدها، و«زاد المعاد» لابن القيِّم (1/228. 230).

وسجود التِّلاوة[1]: «هو سجودٌ شرعَه الله ورسولُه عبوديَّةً عند تلاوة تلك الآيات واستماعها[2]، قُربةً إليه وخضوعًا لعظمته، وتذلُّلاً بين يديه»[3].

فيكون سببُه هو التِّلاوة، فالإضافة فيه من باب إضافة المُسبَّب إلى السَّبب، وهو من أقوى وجوه الاختصاص[4]، قال العيني رحمه الله: «لا خلافَ في كون التِّلاوة سببًا للسُّجود، وإنَّما الاختلاف في سببيَّة السَّماع، فقال بعضُهم ليس السَّماعُ سببًا، ولذلك اقتصرت إضافة السَّجدة إلى التِّلاوة دون السَّماع، أو يُقال إنَّ التِّلاوةَ أصلٌ في الباب؛ لأنَّها إذا لم تُوجَدْ لم يوجد السَّماع، فكان ذكرها مُشتَملاً على السَّماع من وجه فاكتُفِيَ به»[5].

■ اتَّفقَ أهلُ العلم على أنَّه ليس في القرآن أكثر من خمسَ عشرة سجدة، كما اتَّفقوا على مشروعيَّة السُّجود في عشرٍ منها، وهي: سجدة الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، والأولى الَّتي في الحج، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، ثمَّ اختلفوا في السُّجود في ثانية الحج، وص، وفي الثَّلاث اللَّواتي في المفصَّل النجم، الانشقاق، العلق.



■ ثمَّ إنَّ العلماءَ اختلفوا في حكم سجود التِّلاوة في حقِّ التَّالي[6] والمستمع[7] والسَّامع[8] بعدَ اتِّفاقهم على مشروعيَّته لهم، قال النَّووي رحمه الله: «فقد أجمعَ العلماءُ على الأمر بسجود التِّلاوة، واختلفوا في أنَّه أمرُ استحباب، أم إيجاب» اهـ[9].

□ **أمَّا التَّالي:**

فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأوَّل: أنَّ السُّجودَ واجبٌ في حقِّه مُطلَقًا في الصَّلاة وخارجها، وهو مذهبُ الحنفيَّة[10] وأحمد في رواية[11]، واختارها ابن تيمية[12]، وقد استدلَّ هؤلاء بما يلي:

ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق]، قالوا: فإنَّ الله ذمَّهم على ترك السُّجود، وإنَّما استحقُّوا ذلك بترك الواجب، فرُدَّ عليهم بأنَّ المقصودَ بالذَّمِّ مَنْ تَرَكَ السُّجودَ غير مُعتقد فضلَه، أو مشروعيَّته، أو مَنْ تركَهُ تكذيبًا واستكبارًا.

ـ قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62] وقوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: 19]، قالوا: وهذا أمرٌ بالسُّجود، ومطلقُ الأمر يقتضي الوجوب.

ـ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»[13]، قالوا: قوله ﷺ: «أُمِرَ» دليلٌ على الوجوب.

ونوقشوا بأنَّ الأمرَ يقتضي الوجوب إذا خلا عن القرائن الصَّارفة عنه إلى غيره، وقد وُجد الصَّارفُ له كما سيأتي في أدلَّة القول الثَّاني.

ـ قالوا: لو لم يكُنْ واجبًا لمَا جَازَ أداؤه في الصَّلاة؛ لأنَّ أداءه زيادةُ سجدةٍ، وهو تَطَوُّعٌ يُوجبُ الفسادَ[14].

القول الثَّاني: أنَّه سنَّةٌ مُطلَقًا، وهو ما ذهب إليه المالكيَّة[15] والشَّافعيَّة[16]

(1) قال الخرشي رحمه الله: «إنَّما قالوا سجود التِّلاوة، ولم يقولوا سجود القراءة؛ لأنَّ التِّلاوة أخصُّ من القراءة، فالتِّلاوةُ لا تكون في كلمة واحدة، والقراءةُ تكون فيها، تقول: قرأ فلانٌ اسْمَه، ولا تقول: تلا اسمَهُ» اهـ بتصرُّف، «شرح الخرشي على مختصر خليل» (2/93).

(2) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص57)، و«شرح معاني الآثار» (1/359)، و«فتح الباري» (2/551)، «بدائع الصَّنائع» (2/3) وما بعدها، و«المبسوط» للسَّرخسي (2/10)، و«تبيين الحقائق» (1/498)، و«المنتقى» للباجي (2/420)، و«المقدِّمات» لابن رشد (1/191)، و«بداية المجتهد» (2/500)، و«مواهب الجليل» (2/361)، و«المجموع شرح المهذَّب» (3/557)، و«روضة الطَّالبين» (1/401)، و«مغني المحتاج» (1/442)، و«المغني» لابن قدامة (2/352)، و«الإنصاف» للمرداوي (2/196).

(3) «حاشية ابن قاسم على الرَّوض المربع» (2/232).

(4) «البناية شرح الهداية» للعيني (2/654).

(5) المصدر السَّابق (2/654)، وانظر: «عمدة القاري» (7/137).

(6) وهو المباشر لقراءة القرآن.

(7) وهو الَّذي يقصدُ الاستماع للقراءة، «حاشية ابن قاسم» (2/233)، و«كشَّاف القناع» (1/531).

(8) وهو الَّذي لا يقصد الاستماع، بل طرق أذنه السَّماع، «كشَّاف القناع» (1/532)، و«حاشية الخرشي» (2/94).

(9) «التِّبيان في آداب حملة القرآن» (ص154).

(10) «المبسوط» (2/6)، و«بدائع الصَّنائع» (1/728)، و«فتح القدير» (2/13)، و«تبيين الحقائق» (1/498).

(11) «الإنصاف» (2/193)، و«الفروع» لابن مفلح (1/500).

(12) «مجموع الفتاوى» (23/139).

(13) أخرجه مسلم (81).

(14) «البناية» (2/660ـ661)، و«بدائع الصَّنائع» (1/729).

(15) «المنتقى» للباجي (2/419)، و«بداية المجتهد» (2/498)، و«شرح الخرشي» (2/97).

(16) «الأمُّ» (1/252)، و«المجموع شرح المهذَّب» (3/551)، و«مغني المحتاج» (1/443).

وأحمد في الرِّواية المشهورة عنه[17] وبها أخذَ أكثرُ أصحابه، وابن حزم[18]، وقد استدلَّ هؤلاء بما يلي:

- حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فلم يسجُدْ فيها»[19]، فلو كان السُّجودُ واجبًا لسَجَدَ رسولُ الله ﷺ، وأمر به زَيْدًا.

- ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّه قال: «قَرَأَ رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر ﴿ص﴾ فلمَّا بَلَغَ السَّجدةَ نَزَلَ فسجد، وسجد النَّاسُ معه، فلمَّا كان يومٌ آخر قرأها فلمَّا بَلَغَ السَّجدة تشزَّنَ[20] النَّاس للسُّجود فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّمَا هيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ، ولَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تشزَّنْتُم للسُّجود» فنزل فسجد وسجدوا»[21].

- ما ثبت عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، أنَّه قرأ سورة النَّحل على المنبر يوم الجمعة حتَّى إذا جاء السَّجدة نَزَلَ فسجد وسجد النَّاسُ، حتَّى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها، حتَّى إذا جاءت السَّجدة قال: «يا أيُّهَا النَّاسُ إنَّا نَمُرُّ بالسُّجود، فمَنْ سجَد فقد أَصَابَ، ومن لم يَسْجُدْ فلا إِثْمَ عليه»، ولَمْ يسجد عمر رضي الله عنه، وفي رواية «إنَّ الله لم يفرض السُّجود إلاَّ أنْ نشاء»[22]، قال النَّووي رحمه الله: «وهذا الفعل، والقول من عمر رضي الله عنه في هذا الموطن، والمجمع العظيم دليلٌ ظاهرٌ في إجماعهم على أنَّه ليس بواجب»[23].

- ما رُوِيَ أنَّ رجلاً قرأَ عند رسول الله ﷺ آيةَ سجدةٍ فسجد، وقرأها آخر



فلم يَسْجُدْ، فلمَّا سُئل النَّبيُّ ﷺ عن ذلك قال: «كُنْتَ إمَامَنَا فَلَوْ سَجَدتَّ سَجَدْنَا»[24] قالوا: فلم يأمره ﷺ بالسُّجود وأقرَّه على تركه.

- ما رُوِيَ عنه ﷺ أنَّه لم يسجد في المُفصَّل[25]، وبما ثبت عنه أنَّه سجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾[26] وفي ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وفي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[27] قال ابن رشد: «وجه الجمع بين ذلك يقتضي أن لا يكونَ السُّجودُ واجبًا، وذلك بأنْ يكونَ كلٌّ واحد منهم حدَّث بما رأى، مَنْ قال: إنَّه سَجَدَ ومن قال: إنَّه لم يسجد»[28].

- أنَّه يُفعل في السَّفر على الرَّاحلة، فلا يكون واجبًا؛ لأنَّه في حكم سجود النَّوافل[29].

- أنَّه ليس هناك نصٌّ صريحٌ في القرآن، ولا في السُّنَّة، ولا إجماعٌ من سَلَف الأمَّة على وجوب سجود التِّلاوة، والواجبات لا تُؤخَذُ إلاَّ مِنْ أَحَدِ هذه الوجوه الثَّلاثة[30].

- أنَّ الأصلَ عدم الوجوب حتَّى يثبُتَ دليلٌ صحيحٌ صريحٌ في الأمر به، مِنْ غير مُعارض له[31].

القول الثَّالث: أنَّه واجبٌ في الصَّلاة مسنونٌ خارجَها، وهو روايةٌ لأحمد[32]، ولعلَّ مُسْتَنَدَه في ذلك ما ثبت من مواظبته ﷺ على السُّجود داخلَ الصَّلاة مع ما نُقل عنه من عدم سجوده أحيانًا خارجَ الصَّلاة، كما في حديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه.

التَّرجيح: الَّذي يظهرُ هو رجحان القول الثَّاني وهو عدم وجوب السُّجود، لقُوَّة ما بُنِيَ عليه من أدلَّة مع سلامتها من المعارض، في مقابل ضعف ما أورَدَه الموجبون للسُّجود من أوجه الاستدلال، قال ابن عبد البرِّ رحمه الله: «وليس قولُ مَنْ أوجبَها بشيء، والفرائض لا تجبُ إلاَّ

---

(17) «المغني» (2/364)، و«الفروع» (1/500)، و«شرح منتهى الإرادات» (1/311).
(18) «المُحلَّى» لابن حزم (3/323).
(19) أخرجه البخاري (1073).
(20) التَّشزُّن: هو التَّأهُّب والتَّهيُّؤ للشَّيء، والاستعداد له، انظر «النِّهاية في غريب الحديث» (2/471)، و«لسان العرب» (13/236).
(21) رواه أبو داود (1410)، والدَّارمي (1507)، وصحَّحه النَّووي كما في «المجموع» (3/555)، والألباني في «صحيح أبي دواد» (1/390).
(22) أخرجه البخاري (1077).
(23) «المجموع شرح المهذَّب» (3/557).
(24) رواه الشَّافعي كما في «المسند» بترتيب الأمير أبي سعيد النَّاصري (ص324)، وأبو داود في «المراسيل» (ص184)، والبيهقي (2/324) من طريقين موصولاً عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة به، وضعَّفهما وقال: «والمحفوظ من حديث عطاء بن يسار مرسل»، وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه عن زيد بن أسلم «المصنَّف» (4396)، قال الحافظ: «رجاله ثقاتٌ إلاَّ أنَّه مُرسَل» «فتح الباري» (2/556)، انظر «التلخيص الحبير» (2/28)، و«إرواء الغليل» (2/226).
(25) كما في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَسجُد في شيء من المُفصَّل منذ تحوَّل إلى المدينة» رواه أبو داود (1403)، والطَّيالسي (2811)، وابن خزيمة (560)، والطَّبراني (11924)، والبيهقي (2/312 ـ 313)، وهو حديث ضعيفٌ، قال ابن عبد البرِّ: «هذا عندي حديث منكر» «التَّمهيد» (19/120)، وانظر «العلل المتناهية» (1/444).
(26) البخاري (1067)، ومسلم (576) من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.
(27) أخرجه مسلم (578) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(28) «بداية المجتهد» (2/499 ـ 500).
(29) «المنتقى» (2/419) و«المجموع» للنَّووي (3/557).
(30) انظر «مقدِّمات» ابن رشد (1/193).
(31) «المجموع» للنَّووي (3/557)، و«حاشية ابن قاسم على الرَّوض المربع» (2/234).
(32) «الإنصاف» (2/193)، و«مجموع الفتاوى» (23/139 و155).

بحُجَّة لا معارضَ لها» اهـ[33].

□ أمَّا المستمع:

فقد اختلفَ أهلُ العلم في حكم سجود التِّلاوة له على قولين:

القول الأوَّل: أنَّه واجب، وإليه ذهب الحنفيَّة[34] وهو اختيارُ شيخ الإسلام ابن تيمية[35].

وقد استدلَّ هؤلاء بما استدلَّ به مَنْ قَالَ بوجوبه على التَّالي وزادوا عليه:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15]، قالوا: وهذا من أبلَغ الأمر والتَّخصيص؛ فإنَّه تعالى نفَى الإيمان عمَّنْ ذُكِّرَ بآيات ربِّه ولم يَسجُد إذا ذُكِّرَ بها[36]، ونوقش بأنَّ المرادَ به التزام السُّجود واعتقاده؛ فإنَّ فعلَه ليس شرطًا في الإيمان إجماعًا، ولهذا قرنه بالتَّسبيح[37].

- ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النَّبيُّ ﷺ يقرأ علينا السُّورة فيها السَّجدة فيسجد، ونسجد معه حتَّى ما يجدُ بعضُنا موضعًا لمكان جبهته»[38].

- ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأ النَّبيُّ ﷺ النَّجم بمكَّة فسجد فيها وسجد من معه، غيرَ شيخ[39] أخذ كفًّا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافرًا»[40].

- ما صحَّ عن عثمان رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّما السَّجدة على من استمعها»[41]، قالوا: (عَلَى) كلمةُ إيجاب؛ فدلَّ على وجوب السُّجود.

القول الثَّاني: أنَّه سنَّة في حقِّ المستمع، وبه قال الجمهور، وهم المالكيَّة[42] والشَّافعيَّة[43] والحنابلة وهو المذهب عندهم[44]، وهو ظاهر مذهب ابن حزم[45]، وقد احتجَّ هؤلاء بما احتجُّوا به على عدم وجوبه على التَّالي، وهذا من باب أولى.

□ أمَّا السَّامع: فقد اختُلف في حكم سجوده على الأقوال التَّالية:

القول الأوَّل: أنَّه واجبٌ، وهو مذهب الحنفيَّة[46] واحتجُّوا:

- بما سبق من الاستدلال على وجوبها للتَّالي، والمستمع، وقالوا إنَّ الأدلَّة مُطلَقةٌ غيرُ مُقيَّدة بالقصد[47].

- وبما رُوِيَ عن ابن عمر: «إنَّما السَّجدة على من سمعها»[48].

القول الثَّاني: أنَّه سُنَّة، وهو مذهب الشَّافعيَّة[49] والحنابلة في وجه[50] وقد احتجَّ هؤلاء بما استدلُّوا به على سنِّيَّته في حقِّ المستمع.

القول الثَّالث: أنَّه سنَّة، ولكن لا يتأكَّدُ في حقِّه تأكُّدَه في حقِّ المستمع، وهو وجه عند الشَّافعيَّة[51].

القول الرَّابع: أنَّه غيرُ مشروع في حقِّه، وهو مذهب المالكيَّة[52] والشَّافعيَّة في وجه ـ أيضًا ـ[53] والحنابلة في المذهب[54] وقد احتجَّ هؤلاء بما يلي:

- ما رُوِيَ عن عثمان رضي الله عنه أنَّه مرَّ بقاصٍّ فقرأ القاصُّ سجدةً ليَسْجُدَ عثمانُ معه فلم يَسْجُدْ وقال: «إنَّما السَّجدة على من استمع»[55].

- وبما رُوِيَ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنَّما السَّجدةُ على مَنْ جَلَسَ لها»[56].

- ما رُوِيَ عن مُطَرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير قال: «قيل لعمران بن حصين: الرَّجل يسمع السَّجدة، ولم يَجْلِسْ لها، قال: «أرأيْتَ لو قَعَدَ لها» كأنَّه لا يُوجِبُه عليه»[57].

---

(33) «التَّمهيد» (133/19).
(34) «المبسوط» (6/2)، و«بدائع الصَّنائع» (730/1)، و«البناية» (661/2).
(35) «مجموع الفتاوى» (150.149/23) و(156.155).
(36) المصدر السَّابق (139/23).
(37) «شرح منتهى الإرادات» (312/1).
(38) أخرجه البخاري (1079)، ومسلم واللَّفظ له (575).
(39) هو أُمَيَّةُ بن خَلَف كما عند البخاري (4863).
(40) البخاري (1067)، ومسلم (576).
(41) رواه البخاري مُعلَّقًا بصيغة الجزم (338/1)، وقد وصله ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (4247) بلفظ: «إنَّما السَّجدة على من جلس لها»، وعبد الرَّزَّاق (5906) بلفظ: «إنَّما السُّجود على من استمع»، وقال ابن حجر: «والطَّريقان صحيحان» «الفتح» (558/2).
(42) «المنتقى» (422/2. 423)، و«بداية المجتهد» (505/2)، و«شرح الخرشي» (92/2).
(43) «المجموع» (551/3)، و«مغني المحتاج» (443/1).
(44) «المغني» (366/2)، و«الإنصاف» (193/2)، و«المبدع» (29/2).
(45) «المُحلَّى» (328/3).
(46) «المبسوط» (7/2)، و«بدائع الصَّنائع» (730/1)، و«تبيين الحقائق» (500/1)، و«فتح القدير» (13/2).
(47) «تبيين الحقائق» (500/1)، و«البناية» (661/2).
(48) رواه ابن أبي شيبة (4252)، وفيه عطيَّة ابن سعد العوفي، وهو ضعيف «الكاشف» للذَّهبي (27/2).
(49) «روضة الطَّالبين» (422/1)، و«نهاية المحتاج» (92/1).
(50) «المغني» (367/2)، و«الإنصاف» (194/2)، و«المبدع» (29/2).
(51) «روضة الطَّالبين» (422/2)، و«مغني المحتاج» (443/1)، و«نهاية المحتاج» (92/2).
(52) «المدوَّنة» (140/1) و«حاشية الدُّسوقي» (489/1).
(53) «المجموع شرح المهذَّب» للنَّووي (552/3).
(54) «المغني» (366/2)، و«الإنصاف» (193/2)، و«المبدع» (29/2).
(55) سبق تخريجه.
(56) رواه ابن أبي شيبة (4243)، وعبد الرَّزَّاق (5908) وزاد فيه: «فإنْ مرَرْتَ فسجدوا فليس عليك سجود»، وفي إسناده ابن جُرَيْج وقد عنعن.
(57) أخرجه البخاري مُعلَّقًا (338/1)، وقد وصله ابن أبي شيبة بمعناه كما في «المُصنَّف» (4251)، ورواه عبد الرَّزَّاق (4251) من وجه آخر: أنَّ عمرانَ بنَ حصين مرَّ بقاصٍّ، فقرأ القاصُّ سجدةً فمضى عمران ولم يسجد معه، وقال: «إنَّما السَّجدةُ على مَنْ جَلَسَ لها» وصحَّح الحافظُ إسنادهما، «فتح الباري» (558/2)، و«تغليق التَّعليق» (411/2).

ـ وقالوا: لأنَّ غيرَ القاصد لم يشارك التَّالي في الأجر فلم يشاركه في السُّجود كغيره[58].

التَّرجيح: الَّذي يظهر هو رجحان القول الرَّابع القائل بعدم مشروعيَّة سجود التِّلاوة للسَّامع، ومَنْ قال: إنَّه سامعٌ للسَّجدة فيُسَنُّ له السُّجود كالمستمع؛ إذ مبناه على الخضوع لله، وليس لتحصيله أجر التِّلاوة، كما هو القول الثَّاني، فله وجه، والله أعلم.

ومع اتِّفاق أصحاب المذاهب الأربعة على مشروعيَّة السُّجود للمستمع، والسَّامع فقد اختلفوا في الشُّروط الواجب تحصيلُها لِكَيْ يُشرعَ لهما السُّجود.

الشَّرط الأوَّل: صلاحيَّة التَّالي لإمامة المستمع، والسَّامع.

ـ فقد ذهب مالكٌ في المشهور عنه[59] والحنابلة في المذهب[60] والشَّافعيَّة في وجه[61] إلى اشتراط كون التَّالي يَصلُحُ لأَنْ يكون إمامًا حتَّى يُشرَعَ السُّجود لتلاوته.

ـ وذهب الحنفيَّة[62] ومالكٌ في رواية عنه[63] والشَّافعيَّة في الأصحِّ عندهم[64]، والحنابلة في قول[65] إلى أنَّه لا يُشترَط ذلك، قالوا: لأنَّ سببَه استماعُ آية السُّجود، وهو حاصلٌ بتلاوة مَنْ لا يصلُحُ للإمامة.

والَّذي يَظهَرُ عدمُ اعتبار هذا الشَّرط؛ لأنَّ سجودَ التِّلاوة لا يُعَدُّ صلاةً، وعليه فلا يُشرَعُ له إمامةٌ ولا ائتمامٌ، والله أعلم.

الشَّرط الثَّاني: سجودُ التَّالي لكي يسجدَ المُستمِعَ، والسَّامع، وقد اختلف العلماءُ في اشتراط ذلك على قولَيْن:

الأوَّل: ذهب الحنفيَّة[66] والمالكيَّة[67] والشَّافعيَّة في المذهب[68] أنَّه لا يُشْتَرَط، وقالوا: لأنَّ سجودَ التِّلاوة يلزم القارئَ والمستمعَ، فإذا تَرَكَ القارئُ ما نُدِبَ إليه فَعَلى المستمع أن يأتي به، ولأنَّ الاستماعَ موجودٌ، وهو سبب السُّجود.

الثَّاني: وذهب الحنابلة[69] والشَّافعيَّة في وجه[70] وبعض المالكيَّة[71] إلى أنَّه يُشترَطُ ذلك حيث اعتبروا القارئَ إمامًا، فلا تصحُّ مخالفَتُه، وتمسَّكوا بقوله ﷺ: «إِنَّكَ كُنْتَ إِمَامَنَا، وَلَوْ سَجَدتَّ سَجَدْنَا»، لكنَّه حديثٌ مُرسَلٌ كما سبق، وبما جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال لتميم بن حذلم ـ وهو غلام ـ قد قرأ عليه سجدة: «اسْجُدْ فَإنَّك إِمَامُنا فيها»[72]، لكن يقال إنَّه لا دلالة فيه على امتناع السُّجود إذا لم يَسجُد التَّالي، وإن كان يسجد بسجوده، وعليه يترَجَّح القول الأوَّل، والله أعلم.

الشَّرط الثَّالث: أن يكون جلوسُهُ ليتعلَّمَ القرآن أو أحكامه، فلا يَسجُدُ الجالس لابتغاء الثَّواب، وذهب إليه أكثر المالكيَّة[73]، وذهب بعضهم[74] إلى أنَّه لا فرقَ وأنَّ العبرةَ بالاستماع، فمتى وُجِد شرع السُّجود، ولعلَّه قولُ بقيَّة المذاهب حيثُ أطلقوا القولَ بمشروعيَّته في حقِّ المستمع دون فرق ـ كما مرَّ ـ، وهو الرَّاجح؛ لأنَّ سبَبَهُ التِّلاوة، أو الاستماع وقد وُجدا.

الشَّرط الرَّابع: أن لا يكون القارئُ جلسَ ليُسمِعَ النَّاس حُسنَ قراءته، ولم يتعرَّض لهذا الشَّرط إلاَّ المالكيَّة[75]، ولعلَّه يرجع إلى الحكم بفسقه[76]، ورُدَّ عليهم بأنَّ غايةَ ما فيه فسقُه بالرِّياء، والمُعتَمَدُ عندهم صحَّةُ إمامة الفاسق[77].

والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(58) «المغني» (367/2)، و«كشَّاف القناع» (532/1).
(59) «المدوَّنة» (140/1)، و«المنتقى» للباجي (423.422/2)، و«حاشية الخرشي» (94/2)، و«مواهب الجليل» (360/2).
(60) «الإنصاف» (194/2)، و«المبدع» (29/2).
(61) «روضة الطَّالبين» (422/1).
(62) «المبسوط» (7/2)، و«بدائع الصَّنائع» (746/1)، و«فتح القدير» (15/2)، و«تبيين الحقائق» (501/1).
(63) «بداية المجتهد» (505/2).
(64) «المجموع شرح المهذَّب» (552/3).
(65) «الإنصاف» (194/2)، و«المبدع» (30/2).
(66) «حاشية ابن عابدين» (578/2).
(67) «المدوَّنة» (140/1)، و«المنتقى» (423/2)، و«حاشية الخرشي» (94/2)، و«حاشية الدُّسوقي» (489/1).
(68) «المجموع» للنَّووي (552/3).
(69) «المغني» (367/2)، و«الفروع» (501/1).
(70) «المجموع شرح المهذَّب» (552/3)، و«روضة الطَّالبين» (422/1).
(71) «المنتقى» (323/2).
(72) أخرجه البخاري مُعلَّقًا بصيغة الجزم (338/1)، وأشار الحافظ أنَّ سعيدَ بنَ منصور وصله في «سننه» ـ لم أقف عليه في المطبوع منه ـ، انظر «تغليق التَّعليق» (409/2)، و«الفتح» (556/2).
(73) «مواهب الجليل» (361.360/2)، و«حاشية الخرشي» (94/2)، و«الفواكه الدَّواني» (256.255/1)، و«الشَّرح الصَّغير» للدَّردير (604/2).
(74) «مواهب الجليل» (361/2).
(75) المصدر السَّابق، و«حاشية الدُّسوقي» (490/1)، و«الفواكه الدَّواني» (256/1).
(76) قلتُ: فيرجع الحكم حينئذ إلى الشَّرط الأوَّل، وهو الخلاف في اشتراط صلاحيَّة التَّالي للإمامة.
(77) «حاشية الدُّسوقي» (490/1).







عمر الحاج مسعود
الجزائر

فضل العبادة زمن الفتنة

تمُـرُّ بالأمَّـةِ الإسلاميَّـةِ أحـوالٌ عصيبـة، وتعصِـف بها رياحٌ عاتيـة، وتحيط بها فـتنٌ مدْلهمَّة، في ظـلِّ النِّظام العالميِّ الجديـدِ والمكرِ اليهـودي والصَّليبي الكُبَّـار والهُتاف بالأرْبِعـة العربيَّـة المُبتدَعة، والمقصودُ مـن ذلك كلِّه: زعزعـةُ عقيـدةِ الأمَّـة وأخلاقهـا وأمنها، وبثُّ الشُّبه حول كتـاب ربِّها تعالى وسنةِ نبيِّها ﷺ، وإحـداثُ الصُّدوعِ في البلدِ الواحدِ وتفتيتُ قوَّته وبثُّ عواملِ الفُرقة بين أبنائه، والدَّعوةُ إلى الخروجِ والعصيان والفوضى تحت غطاء المطالبة بالحقوق والحريَّات ومجابهةِ القمْع والباطل والاستبداد.

وهـذا مـا تدعو إليه وسائلُ الإعلام المختلفةُ من صُحُفٍ وقنوات ومواقعَ إلكترونيَّةٍ، وتحرص عليه وتسخِّر له الألسنةَ الفاجرةَ والأقلامَ الحاقدةَ والأبواقَ النَّاعقةَ.

وإنَّ المسلمَ العاقلَ الفطنَ ليرفُضُ تلك النِّداءاتِ المشبوهةَ ولا تغرُّه تلك الهُتافاتُ المحمومة، ولا يكترث لفتاوى حُدثاءِ الأسنانِ وسفهاءِ الأحلام، وإنَّما يهرُب من الفتن ويفرُّ إلى ربِّه ويعتصم بحبله ويستمسك بغرز علمائه، ويحرص على استتباب أمْنِ بلده، حتَّى يسُدَّ الطَّريقَ أمامَ العابثين بدين الأمَّة ولغتها وأصالتها وثوابتها، الَّذين يصطادون في المياه العَكِرة، ويفسَحون المجال للأعداء والمتربِّصين ليتمكَّنوا من رقاب أبنائها ويتدخَّلوا في شؤونهم، ويخرِّبوا ديارَهم ويستبيحوا حرماتهم وينهَبوا خيراتهم.

ومن أعظم الأسباب الَّتي تقي شرَّ الفتنِ وتحفظُ من سوءِ عاقبتها البعدُ عنها والاعتصامُ بالله تعالى والفرارُ إليه بعبادته ودعائه واستغفاره، وهذا الَّذي رغَّب فيه النَّبيُّ ﷺ، ونوَّه بفضله وأشاد بحُسنِ عاقبته.

فعن مَعقل بن يَسار رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**العبَادَةُ فِي الهَرْجِ كهجْرةٍ إليَّ**» رواه مسلم (2948)، وأحمد (20311) ولفظه: «**العبادةُ في الفتْنة كالهجرة إليَّ**»، وله كذلك (20298): «**العَمَلُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**».

والعبادة: «هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظَّاهرة»[1]، منها إخلاصُ الدِّين لله ودعاؤه والاعتصامُ بحبله، وطلبُ العلم النَّافع وسؤالُ أهله والرُّجوعُ إليهم، ومنها الصَّلاةُ والصِّيامُ والذِّكرُ، ومنها الصِّدقُ والأمانةُ وفعلُ المعروف وأداءُ الحقوق، وطاعةُ الحاكم المسلم في غير معصية الله.

(1) «مجموع الفتاوى» (10/149).

والهرْج: هو القتلُ والتَّناحر والفتنةُ واختلاطُ أمورِ النَّاس، وفُشُوُّ الفوضى بينهم، روى البخاري (6037) ومسلم (157) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقْبَضُ العِلْمُ وَتَظْهَرُ الفِتَنُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» قالوا: وما الهَرْجُ؟ قال: «**القَتْلُ**».

والهجرةُ: هي الانتقالُ من بلَد الشِّرْك إلى بلدِ الإسلام، ومنها الهجرةُ من مكَّةَ ـ لمَّا كانت دارَ كفر ـ إلى المدينة، وهي من أجلِّ العبادات وأعظم القُربات، وبخاصة إليه ﷺ في حياته.

«**كهجْرةٍ إليَّ**»: قال ابن العربي رحمه الله في «عارضة الأحوذيِّ» (9/53): «ووجهُ تمثيله بالهجرة أنَّ الزمانَ الأوَّلَ كان النَّاسُ يفرُّون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتنُ تعيَّن على المرْء أن يفرَّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجُرَ أولئك القومَ وتلك الحالةَ، وهو أحدُ أقسام الهجرة».

وقد شبَّه النَّبيُّ ﷺ العابدَ ربَّه وقتَ الهرْج والفتنة بالمهاجر إليه فرارًا بدينه، وسبب هذا التَّشبيه «أنَّ الناسَ في زمن الفتن يتَّبعون أهواءَهم ولا يرجعون إلى دين، فيكون حالُهم شبيهًا بحال الجاهليَّة، فإذا انفرد من بينهم مَن يتمسَّك بدينه ويعبد ربَّه ويتَّبع مراضيَه ويجتنبُ مساخطَه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهليَّة إلى رسول الله ﷺ مؤمنًا به، متَّبعًا لأوامره مجتنبًا لنواهيه»[2].

ولا يختصُّ هذا بآخر الزَّمان، وإنَّما هو عامٌّ في سائر الأزمنة؛ لأنَّه مربوطٌ بسبب، وهو الفتنةُ والهرْجُ.

(2) قاله ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص 132).

إنَّ هذا الحديثَ المباركَ يُرسي المنهجَ القويمَ الَّذي ينبغي أن يسلكه طالبُ النَّجاة من شرِّ الفتن، وسأذكر ـ بتوفيق الله ـ أهمَّ فوائده، وأنبِّه كذلك على بعض مقاصد العبادة في زمن الفتنة، فمن ذلك:

1. فضلُ العبادة أيامَ الفتنة والهرج، وعظَمُ ثوابها ومضاعفةُ أجرها، حيث إنَّه ﷺ جعلها مثلَ درجة من هاجر إليه، ولا يخفى ما في الهجرة من الأجر والثَّواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ وقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

وقال النَّبيُّ ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» رواه مسلم (121).

هذا فضلُ الهجرة ـ عمومًا ـ الَّتي لا تنقطعُ إلى يوم القيامة، فكيف بالهجرة إليه ﷺ خصوصًا؟

وسببُ هذا الأجرِ الكبيرِ والفضلِ العظيم أنَّ الفتنَ إذا عمَّت اشتغل النَّاسُ بها وأثَّرت في قلوبهم، وألْهتهم عن عبادة ربِّهم، ولم يتفرَّغ للعبادة إلاَّ القليل، وهم الَّذين يفرُّون إلى الله عز وجل من الفتن وأهلها.

والطَّاعة إذا عُمل بها وظهرت سهُلت وخفَّت، وإذا تُركت وغُفل عنها شقَّت

وثقلت إلَّا على الخاشعين؛ لأنَّ النُّفوس تتأسَّى بما تشاهد من أحوال بني وقتها وتتأثَّر به[3]، ولهذا المعنى قال رسولُ الله ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»، رواه مسلم (145) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، وجاء تفسيرُ الغرباء عند أبي عمرو الدَّاني في «السُّنن الواردة في الفتن» رقم (288) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»[4].

إنَّ الفتنةَ كالكير يمحِّصُ الجواهرَ ممَّا يشوبُها، وفيها يتبيَّن مَن يعبدُ الله ممَّن يتبع هواه؟

2. إشارةٌ إلى فضيلة الانفراد بعبادة الله تعالى وذكره وقتَ غفلة النَّاس واشتغالهم بالفتن والشَّهوات، روى التِّرمذيُّ (3579) والنَّسائي (572) وصحَّحه الألباني عن عمرو بن عبَسَةَ رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِن العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»، واللَّيل - وبخاصَّةٍ آخره - وقتُ غفلة وخلود إلى النَّوْم.

3. أنَّ العبادة - التي تكون من الضُّعفاء - نُصرةٌ للمظلومين وحمايةٌ للمؤمنين، وجلبٌ للأرزاق والنِّعم، ودفعٌ للفتن والنِّقم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**»، رواه البخاري (2896) والنَّسائي (3178) ولفظه: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**».

قال ابن تيمية رحمه الله كما في «جامع المسائل» (61/2): «فإنَّ الله - بعبادات عباده المؤمنين ودُعائهم - يَجلبُ للنَّاس المنافعَ ويَدْفَعُ عنهم المضارَّ... وانتفاعُ الخَلْق بدعاء المؤمنين وصلاتهم كانتفاع الحيِّ والميِّت بدعاء المؤمنين واستغفارهم، ونزول الغيث بدعاء المؤمنين واستغفارهم، والنَّصر على الأعداء بدعاء المؤمنين واستغفارهم، وأمثال ذلك ممَّا اتَّفق عليه المؤمنون».

4. أنَّ المنفردَ بالطَّاعة من بين أهل المعصية والغفلة قد يدفع الله عنهم بصلاته البلاءَ، وينجِّيهم بدعائه من الفتنة.

وقال غيرُ واحد من المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾: «لولا أن الله يدفع بمن يصلِّي عمَّن لا يُصلِّي، وبمن يتقي عمَّن لا يتقي لأهلك النَّاسَ بذنوبهم»[5].

5. أنَّ في أيَّام الفتن تَهيجُ النُّفوسُ وتَنزعجُ القلوبُ وتَطيشُ العُقولُ وتَضطربُ الأمورُ وتفشو الفوضى ويذهبُ الأمنُ، فلا يصلُح حينئذ إلَّا العبادةُ والذِّكرُ والاستغفارُ رجاءَ الحصول على الثَّبات والسَّكينة والطُّمأنينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾، روى الطَّبري في «تفسيره» (518/13) عن قتادة رحمه الله قال: «سكنت إلى ذكر الله واستأنست به»، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

6. أنَّ العبادة شفاء لما تدعو إليه الفتن من الأمراض، فتطهِّر النُّفوس من التَّهوُّر والاندفاع، وتزكِّيها من حبِّ الشُّهرة والظُّهور، وتَحميها من الطَّمع والحرص على المال والرِّئاسة والزَّعامة والمنافسة فيها.

روى مسلم (2965) أنَّ سعدَ بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه قال له ابنهُ عُمَرُ: «أنزلتَ في إبلك وغَنَمك وتركتَ النَّاسَ يتنازعون الملكَ بينهم؟»، فضرب سعدٌ في صدره، فقال: «اسكُتْ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»، والعبدُ الخفيُّ هو المنقطعُ - زمنَ الفتنة - لعبادة ربِّه، المشتغلُ بما ينفعُه، الَّذي لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا ولا يبغي شُهرةً ولا منصبًا.

قال ابن بطَّة رحمه الله في «الإبانة الكبرى» (600/2): «فرحم الله عبدًا آثرَ السَّلامةَ ولزم الاستقامةَ، وسلك الجادَّةَ الواضحةَ والسَّوادَ الأعظمَ، ونَبذ الغلطَ والاستعلاءَ، وترَك الخوضَ والمراءَ والدُّخولَ فيما يضرُّ بدينه والدُّنيا، ولعلَّه - أيضًا - مع هذا لا يسلَم من فتنة الشَّهوة والهوى».

7. أنَّ العبادة تُستَدفَع بها المصائبُ والمضارُّ والفتن؛ لأنَّ سببَها الذُّنوبُ، فإذا تاب أصحابُها واستغفروا ربَّهم منها، وفرُّوا إليه بعبادته وذكره والتَّضرُّع إليه، نجَّاهم منها ووقاهم شرَّها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وعن أمِّ سلمَةَ زوج النَّبيِّ ﷺ قالت: استيقظ رسولُ الله ﷺ ليلةً فزعًا يقول: «**سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ**

(3) انظر «لطائف المعارف» (ص 132).
(4) انظر «الصَّحيحة» للألباني (1273).
(5) انظر «المحرَّر الوجيز» (338/1).

الفتَن، مَـنْ يُوقظُ صَوَاحبَ الحُجُرَات. يُرِيـدُ أَزْوَاجَهُ. لكَيْ يُصَلِّينَ؟، رُبَّ كَاسيَةٍ في الدُّنْيَا عَارِيَةٍ في الآخِرَةِ» رواه البخاري (7069).

قـال ابـن حجـر في «الفتح» (23/13): «وفي الحديث النَّدبُ إلى الدُّعـاء والتَّضـرع عند نـزول الفتنة ولا سيَّما في اللَّيـل لرجـاء وقتِ الإجابـة، لتُكشَـف أو يَسـلَمَ الدَّاعي ومَـن دعا له، وبالله التَّوفيق».

وعـن ابـن عبَّـاسٍ رضي الله عنهما أنَّ نبـيَّ الله ﷺ كان يقـول عنـد الكـرْب: «لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ العَظِيـمُ الحَلِيمُ لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيـم، لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَـوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيم» رواه البخاري (6346) ومسلم (2730) وله في روايـة: «كَانَ إذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قال...».

وروى أبـو داود (1319) وحسَّـنه الألبـاني عن حذيفـة رضي الله عنه قَال: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ صلَّى».

فهديُـه ﷺ إذا حزبه أمـرٌ - أي نابَه وألمَّ به واشـتدَّ عليه - أن يسـتغيثَ بربِّه، ويفـزَعَ إلى مناجاتـه ودعائه والتَّضـرُّع إليـه، ليرفعَه عنـه ويُبدلَه مكانَـه فرَجًا وطمأنينةً وأمْنًا، بخلاف ما عليه النَّاسُ اليـومَ - مع كـثرة الفتن والمصـائب - من الغفلة عـن كلِّ ذلـك، واتِّباع الشَّـهوات وإضاعـةِ الصَّلوات، والسَّـهَرِ على تتبُّع المواقـع ومشـاهدة القنوات، والمنافسـة في المناصـب والولايـات، وحديثُ معقلٍ رضي الله عنه يتضمَّنُ تشبيهَ هؤلاء بالقاعدين عن الهجرة التَّاركين لها.

8. أنَّ التَّفـرُّغَ للعبادة انصـرافٌ عن القيـل والقـال وكثرةِ السُّـؤال وإضاعـةِ الوقـت، وتـركٌ لمـا لا يعنـي الإنسـانَ مـن الأخبـار والعلاقـات والمعامـلات والمجالس، وإعراضٌ عمَّا لا يُحسِن وعمَّا ليس هو من أهله في دبيرٍ ولا قبيل، ولا له فيه ناقةٌ ولا فصيل.

ولا شكَّ أنَّ هذا أسلمُ للعبد وأحوطُ، وأبعدُ عن مشـاركته في إحداثِ الفوضى والاضـطرابِ وسـفكِ الدِّمـاءِ ونشْـرِ الأكاذيبِ وإعانة الظَّلَمَةِ وقذفِ الأبرياء.

إنَّ النَّاس أيَّامَ الفتنِ يخوضـون فيما لا يُحسـنون، ويتأثَّـرون بما يشـاهدون، ويحلِّلـون الأقـوال والآراء، وتُثيرهـم التَّهييجـاتُ والأهواء، فتمرضُ قلوبُهم ويفسُـدُ تفكيرُهـم، ويغفُلون عـن عبادة ربِّهـم، ويُهمِلـون مصـالحَهم وبيوتَهـم ويفرِّطون في أماناتهم، ومن اشـتغلَ بما لا يَعنيه ضيَّع ما يَعنيه.

وخيرٌ لهم - لو كانوا يعقلون - الاشتغالُ بالعبـادة والعلـم والتَّعليـم والفـرارُ من جميـعِ النِّـداءات المحمومـةِ والمؤثِّـراتِ المهلكـةِ والسُّـيولِ الجارفـة، فهـذا هـو الاشـتغال بمـا ينفـع ويعنـي، والحرصُ علـى ما يُثمِـرُ ويَبْني، ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

والله مـن وراء القصـد وهـو يهدي السَّـبيل، وصلِّ اللَّهمَّ وسـلِّمْ وباركْ على نبيِّنـا محمَّـد الرَّحمـة المُهداة والمِنَّـة المُسْـداة، وعلـى آلـه الأبـرار وصحبه الأخيار، وعلى التَّابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار.



سليم مجوبي

الجزائر

موقفُ جمعيـة العلماء من الصالحين والأولياء

والردُّ على الغلاة والأدعياء (ج2)

المبحث الثَّالث:
التَّحذير من أباطيل الغلاة والأدعياء

إنَّ مـن عقائـد الطُّرقيَّـة في الأوليـاء أنَّهـم يعلمـون الغيب ويتصرَّفـون في الكـون، بل ويضمنون الجنَّـة لمريديهم، في حين يُسقطـون عن أنفسهـم التَّكاليف ويُلتمَس لهم العذرُ في ارتكاب المحرَّمات بحُجَّة الكرامات.

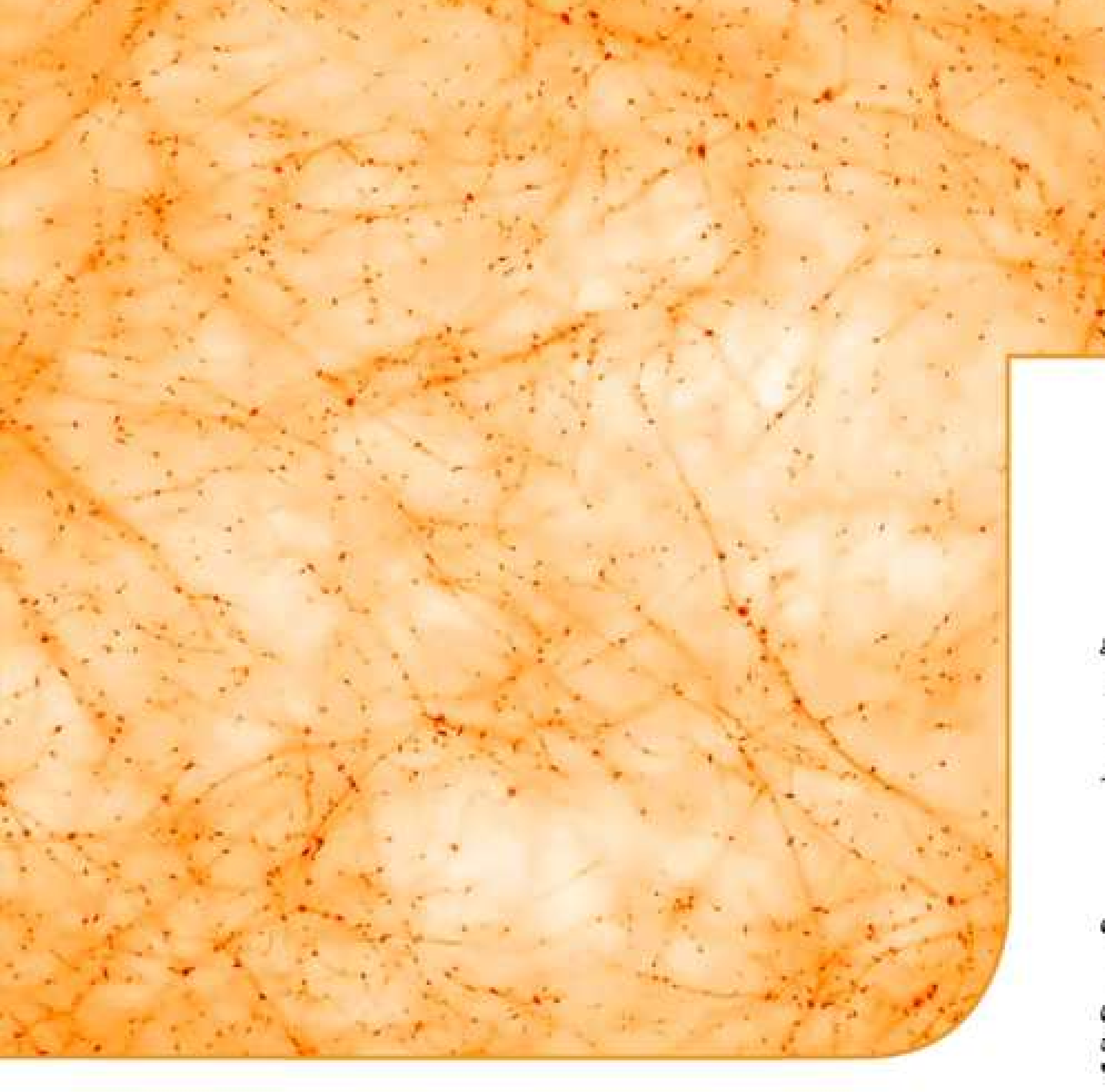
قال أبو يعلى الزواوي رحمه الله:

«وكذلك نقول: إنَّ ما أحدثَه الغلاةُ من المتصوِّفة من القول بالقُطـب والغَوث[1] ووحدة الوجود وتصـرُّف الأولياء الأموات وقضـاءِ الحاجات على أيديهـم والتَّوسُّل بهم وطلبِ ذلك منهم والاستغاثةِ بهم والدِّيوان وإسنادِ الحوادث السَّماويَّة والأرضيَّة إليهـم؛ كلُّ هـذا لم يكن عليـه محمَّد ﷺ وأصحابُـه، إلى غيرِ ذلك من خُزعبلات المتصوِّفة ومنكراتِهم وشطحاتهم»[2].

وقـد حذَّر علماء الجمعيَّة من هذه المعتقـدات الَّتي أفسدت على العوامِّ دينهم ودنياهم.

(1) قال الميلي: «ومعناه رأس العارفين، ويزعمون أنَّه لا يساويه أحدٌ في مقامه حتَّى يموت فيخلفه آخر، وهو معنى الإمام المعصوم عند الرَّافضة»، «الشِّرك ومظاهره» (418).

(2) «جريدة الشِّهاب»: (328/3).



أمَّا علم الغيب:

فقد قال الشَّيخ العربي التَّبسِّي:

«وكلُّنا يعلم أنَّ هذه الدَّعوات الَّتي يُعطيها أشياخُ الطَّرائق تركت في نفوس الجماهير أسوأ الآثار، وأقبحَ الاعتقادات المعادية للأوَّليات الإسلاميَّة الَّتي تنادي وتوحي إلى كلِّ مسلم أنَّ عالَم الغيب وما فيه بيَد خالقه، فجاءت الدَّعوات الطُّرقيَّة ومدَّت يدها إليه وتصرَّفت [فيه بجميع أنواع التَّصرُّفات والمعارضات، وصيَّرته تحت مشيئتها]»[3].

وقال الطَّيِّب العقبي:

بعدما حكى شيئًا من أقوالهم في علم الغيب: «هكذا يقولون ويعتقدون، ويزعمون بعد ذلك أنَّهم مسلمون... وأنا أقول لهم ما قاله الله في كلامه القديم[4] لعباده المكلَّفين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان].

صدق الله العظيم، وصدقت عائشةُ فيما قالته لمن سألها عن مثل هذا: «ذاك في خمس لا يَعلمهنَّ إلاَّ الله»[5]، وقرأت الآية، وروى ابنُ عمر في الحديث الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ» وتلا هذه الآية[6]، وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «هذه الخمسةُ لا يَعلمها ملَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مصطفى، من ادَّعى أنَّه يَعلم شيئًا من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنَّه خالَفه»[7].

فهل مشائخكم[8] أعلم وأتقى وأجلُّ من هؤلاء السَّادة، أم أنتم بأقوالكم هذه في الضَّلال تعمهون، وباعتقادكم لها وإقرارها بينكم تكفرون، ومن الإسلام تمرقون؟؟»[9].

يقول ابن باديس رحمه الله:

«ومن توحيده تعالى في ربوبيَّته: اعتقادُ أنَّ العبدَ لا يعلم الغيب. وهو ما غاب عن الحواسِّ، ولا يوصَل إليه بصحيح النَّظر ـ، فلا يَعلم منه إلاَّ ما جاء في صحيح الخبر[10]، فيجب الإيمانُ به كما جاء، بدون زيادة ولا تنقيص»[11].

❊ ❊ ❊

فعلم الغيب على الإطلاق من خصائص الربِّ عز وجل؛ ومن الأدلَّة على ذلك[12]:

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65].

وقوله تعالى حاكيًا عن نوح عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود: 31].

وقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ

---

(3) «الأعمال الكاملة للعربي التَّبسِّي» (435)، والزِّيادة من «جريدة الشِّهاب» (374/4).

(4) إن كان مراد الشَّيخ بالقديم، القدم النِّسبي بمعنى أنَّه قديم بالنِّسبة إلى وقت مخاطبة الشَّيخ لهؤلاء الطُّرقيَّة، فإنَّ وقت نزول الآية قديم بالنِّسبة إليه؛ فنعم، وأمَّا إطلاق القدم على صفة الكلام لله عز وجل بمعنى أنَّها أزليَّةٌ قائمةٌ بذاته لم يزل متكلِّمًا متى شاء وكيف شاء فصحيحٌ على جهة الإخبار، ولهذا يقال «قديم النَّوع حادث الآحاد»، وأمَّا إطلاق القديم على آحاد كلام الله عز وجل كالتَّوراة والإنجيل والقرآن فهو باطل مخالفٌ لقول أهل السُّنَّة والجماعة، ونسبه ابن أبي العزِّ إلى طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث، انظر «شرح الطَّحاوية» (168) وما بعدها.

(5) لم أجده بهذا اللَّفظ عن عائشة، وهو قطعةٌ من حديث جبريل الطَّويل في الإسلام والإيمان والإحسان، أخرجه البخاري في «صحيحه» (50) من حديث أبي هريرة، والَّذي عن عائشة هو قولها: «من قال إنَّ أحدًا يعلم الغيب إلاَّ الله فقد كذب وأعظم الفرية على الله، قال الله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾»، أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (226/10)، وعند البخاري في «تفسير سورة النَّجم» برقم (4855): «ومن حدَّثك أنَّه يعلم ما في غد (تعني النَّبيَّ ﷺ) فقد كذب، ثمَّ قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾».

(6) أخرجه البخاري في «صحيحه» (4778).

(7) انظر «تفسير القرطبي» (497/16).

(8) لعل الشيخ قصد همزها؛ لأنَّ الصَّواب: مشايخكم (بالياء)، فإنَّ «همز المشايخ لا يجوز»! وهذه من العبارات اللَّطيفة الَّتي تذكر لغرضين: لغويٍّ ومعنويٍّ؛ فاللُّغوي: نُطق هذه الكلمة بالهمزة بدل الياء خطأ، والمعنوي: الطَّعن في المشايخ وتنقُّصهم.

(9) «الشِّهاب» (318/1).

(10) نقل الميلي عبارات في تعريف الغيب، تدور حول هذا المعنى، فانظرها في «الشِّرك ومظاهره» (197).

(11) «العقائد الإسلاميَّة» لابن باديس (88).

(12) ذكر هذه الأدلَّة الميلي في «الشِّرك ومظاهره» (198 ـ 199)، وابن باديس في «العقائد الإسلاميَّة» (89).



﴿لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: 50].

وقوله تعالى حاكيًا عنه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: 188].

وتقدَّم ذكر حديث ابن عمر وعائشة من كلام العقبي رحمه الله.

❋ ❋ ❋

وقد يُطلع الله عز وجل من شاء من أنبيائه ورسله وملائكته على بعض المغيَّبات؛ قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن]، قال ابن كثير: «وهذا يعُمُّ الرَّسول الملَكي والبشري»[13].

❋ ❋ ❋

وأمَّا ما يقع للمؤمنين الصَّالحين والأولياء المتَّقين من رؤى أو إلهام أو فِراسة تقع مطابقة للواقع؛ فليس من علم الغيب.

قال الميلي رحمه الله:

«وأمَّا التَّعبير والإلهام؛ فهُما من غير المعصوم غير معصومَين من الخطأ، فلا يسمَّيان علمًا ما داما في الغيب، فإذا تحقَّقا في الخارج وصدَق عليهما وصفُ العلم؛ ارتفع عنهما حُكم الغيب. فإلهام الوليِّ ورؤياه لا يتناولهما علمُ الغيب، وهذا بخلاف رؤيا الأنبياء وإلهاماتهم؛ فإنَّها حقٌّ يصدُق عليها علمُ الغيب بإعلام الله لهم، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الأولياء جزءًا ضعيفًا من النُّبوَّة، نازلا عنها بخمس وأربعين جزءًا، فقال: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[14]»[15].

ثمَّ قال رحمه الله:

«والعوامُّ ينسبون علمَ الغيب المطلق إلى من اتَّخذوهم أولياء، سواء سمَّاهم الشَّرع أولياء أو كُهَّانًا أو سحرةً أو مَرَدةً أو مجانين، فيخشَون في غيبتهم أن يطَّلعوا على ما لا يَرضَونه منهم، ويشدُّون إليهم الرِّحال استعلامًا عن سرقة أو استفتاءً عن عاقبة حركة».

وذكر رحمه الله أنَّ أحدَ مُريدي الطُّرقيَّة حدَّثه أنَّه كان يعلِّم القرآن، وكانت نفسُه تدعوه إلى غِشيان النِّساء، فلم يكن يمنعُه من ذلك إلاَّ خشيةُ الشَّيخ أن يطَّلع عليه من طريق الغيب... ثمَّ قال رحمه الله: «والحكاياتُ في مثل هذه الضَّلالات ممَّا لا تسعُه المجلَّدات؛ فإنَّ نسبة الغيب المطلق إلى الأولياء ممَّا شاعَ وذاع، وملأ الحَزْن والقاع[16]، وهو شرك بإجماع»[17].

❋ ❋ ❋

❋ وأمَّا التَّصرُّف في الكون:

فقد قال العقبي - بعد ما حكى عنهم نسبةَ ذلك إلى أوليائهم -:

«سبحانك اللَّهُمَّ! هذا هو الكفرُ بعَينه وهذا هو البهتان العظيم، إنَّ أولياءَ الله هم الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقون، ليس لهم ولا لغيرهم من الأمر شيءٌ، بل الأمرُ لله وحدَه، وهو الفعَّال لما يريد، لا معقِّب لحُكمه، له الخلقُ والأمر، وليس للأولياء معه في مُلكه شِرك، وما له منهم من ظهير، من مات منهم فقد أفضى إلى ما عمِل، وانقطع عملُه إلاَّ من ثلاث، كما ورد في الحديث الصَّحيح[18]، ومن حييَ منهم فإنَّهم كالعباد أمثالنا، وهم ونحن لنا التَّصرُّف الكسبيُّ الخاصُّ كما هو لأحقر الحيوانات وأقلِّ الحشرات، فقد تتصرَّف حتَّى العقربُ والنَّملة والبعوضة كما هو مشاهدٌ، فهذا التَّصرُّف لا نُنكره، وحيث شاركهم فيه الغيرُ، فلا معنى لتخصيصهم به؛ وأمَّا التَّصرُّف المطلقُ العامُّ؛ فهو للمَلك العلاَّم، قيُّوم السَّموات والأرضين وما بينهما، له الحكم وإليه تصير الأمور.

وواجبٌ على كلِّ مسلم أن يؤمن ويصدِّق بقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران]، فالله هو المتصرِّف في العالم بأسره لا إله إلا هو ربُّ السَّموات والأرضين وربُّ كلِّ شيء، آمنتُ به وعليه توكَّلت وإليه أُنيب»[19].

وقال الإبراهيمي رحمه الله:

«وأكبرُ جرحة دينيَّة فيهم - عندي - إقرارُهم لتلك الأماديح الشِّعريَّة الملحونة الَّتي كان يقولُها فيهم الشُّعراءُ

(13) «تفسير ابن كثير» (556/4).

(14) أخرجه البخاري (6983) ومالك (1845).

(15) «الشِّرك ومظاهره» (203).

(16) الحَزْن: ما غلظ من الأرض، والقاع: الأرض الواسعة السَّهلة، «لسان العرب» (861/2) و(3775/6).

(17) «الشِّرك ومظاهره» (210. 211).

(18) أخرجه مسلم في «صحيحه» (1631).

(19) «جريدة الشِّهاب» (317/1. 318).

المتزلِّفون وينشدونها بين أيديهم في محافلهم العامَّة، وفيها ما هو الكُفر أو دونَه الكفرُ؛ من وصفهم بالتَّصرُّف في السَّموات والأرضين وقدرتهم على الإغناء والإفقار وإدخال الجنَّة والإنقاذ من النَّار، دع عنك المبالغات الَّتي قد تُغتفر، كلُّ ذلك وهُم ساكتون بل يَعجبون لذلك ويَطربون، ويُثيبون المادح، علمًا منهم أنَّ ذلك المديح دعايةٌ مثمرةٌ تجلب الأتباع وتدرُّ المال، ولو كانوا على شيءٍ من الدِّين لما رضُوا أن يَسمعوا تلك الأماديح، وهم يعلمون كذبها من أنفسهم ويعلمون أنَّ فيها تضليلاً للعامَّة وتغريرًا بعقائدها»[20].

***

وقد بيَّن الميلي رَحِمَهُ اللهُ حالات نسبة التَّصرُّف إلى المخلوق وبيَّن حُكمها، استنادًا إلى حديث الاستسقاء بالأنواء[21]، فقال:

«التَّصرُّف في الكون خاصٌّ بالله سبحانه، وكلُّ لفظٍ فيه نسبةُ الفعل[22] للمخلوق؛ لا يخلو من ثلاث حالات:

إحداها: أن تكون النِّسبة على معنى التَّأثير في الفعل دون الله.

ثانيتها: أن تكون على معنى التَّأثير بجَعل الله وتفويضه.

ثالثتها: أن تكون على معنى الإخبار عن عادة أجراها الله من غير تأثير ذاتي أو جعلي.

والحالتان الأوليان هما المحكيَّتان في الفصل الثَّامن عن وثنيِّ الكلدانيِّين[23]، والحالةُ الثَّالثة ليست كفرًا؛ ولكن يُمنع منها ما فيه إيهام»[24].

ثمَّ نقل رَحِمَهُ اللهُ كلام الشَّافعي في هذه الأقسام مع جمع الأول والثَّاني في وجهٍ واحد، وهو قولُه في «الأمِّ»:

«من قال: «مُطرنا بنَوء كذا وكذا»، على ما كان بعض أهل الشِّرك يَعنون من إضافة المطر إلى أنَّه مطرُ نَوء كذا؛ فذلك كُفرٌ، كما قال رسول الله ﷺ؛ لأنَّ النَّوء وقت[25]، والوقتُ مخلوقٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ومن قال: «مُطرنا بنوء كذا»، على معنى مُطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفرًا، وغيرُه من الكلام أحبُّ إليَّ منه»[26].

ثمَّ قال الميلي رَحِمَهُ اللهُ:

«ومن وقف على مقاصد الكثير من عوامِّنا في نسبة الأفعال إلى الأولياء وتصرُّفهم في الكون؛ لم يشكَّ في انطباق الحالة الثَّانية عليهم، إذ يعتقدون أنَّ الأولياء أعزَّاءُ على الله، وقد فوَّض إليهم التَّصرُّف، وأنابَهم عنه فيه، فما قضَوه للنَّاس وافقهم الله عليه... بل منهم من ينتهي به الأمر إلى الحالة الأولى، فيعتقدون في الوليِّ أنَّه يفعلُ ما يفعل بقوَّته لا بقوَّة الله!! وتجد من المخذولين من يدَّعي ذلك لنفسه»[27].

وقد نقل رَحِمَهُ اللهُ عن أحد مريدي الطُّرق «أنَّه طلب من شيخه ولدًا ذكرًا، فأعطاه الشيخ إيَّاه، وحدَّد له علامةً تكون في جسمه عند الولادة، فإن ظهرت العلامةُ فهو من الشَّيخ، وإن وُلد خاليًا منها فهو من الله! وحكى ـ أيضًا ـ أنَّه كان مع صاحب له فقيه، فجاءهم رجلٌ وقصَّ عليهم نجاتَه من إحدى المصائب الَّتي حلَّت به قائلاً: لو ما النَّاس الصَّالحين... فقال له الفقيه: وربِّي؟ قال: ربِّي والنَّاس الصَّالحين، فقال: وربِّي وحده؟ قال: هكذا سمعنا النَّاس يقولون»[28].

ولهذه الطَّوامِّ ـ كما قال الميلي ـ أشباهٌ ونظائر يعرفُها من اختلط بالعامَّة وسمع أخبارَهم مع أوليائهم.

***

ومن الأدلَّة على اختصاص الله بالتَّصرُّف في الكون:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾

(20) «سجلُّ مؤتمر جمعيَّة العلماء» (39).

(21) والحديث عند البخاري (846)، من حديث زيد بن خالد الجهني أنَّه قال: صلَّى بنا النَّبيُّ ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من اللَّيل، فلمَّا انصرف أقبل على النَّاس فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ: فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

(22) يقصد بنسبة الأفعال: أفعال الرُّبوبيَّة والتَّصرُّف في الكون، وأمَّا أفعال المخلوقين الكسبيَّة وتأثيرها في مسبَّباتها فقد تقدَّم إثباته لها حتَّى للحيوانات.

(23) هم قوم إبراهيم عُبَّاد الكواكب، انظر «الشِّرك ومظاهره» (117).

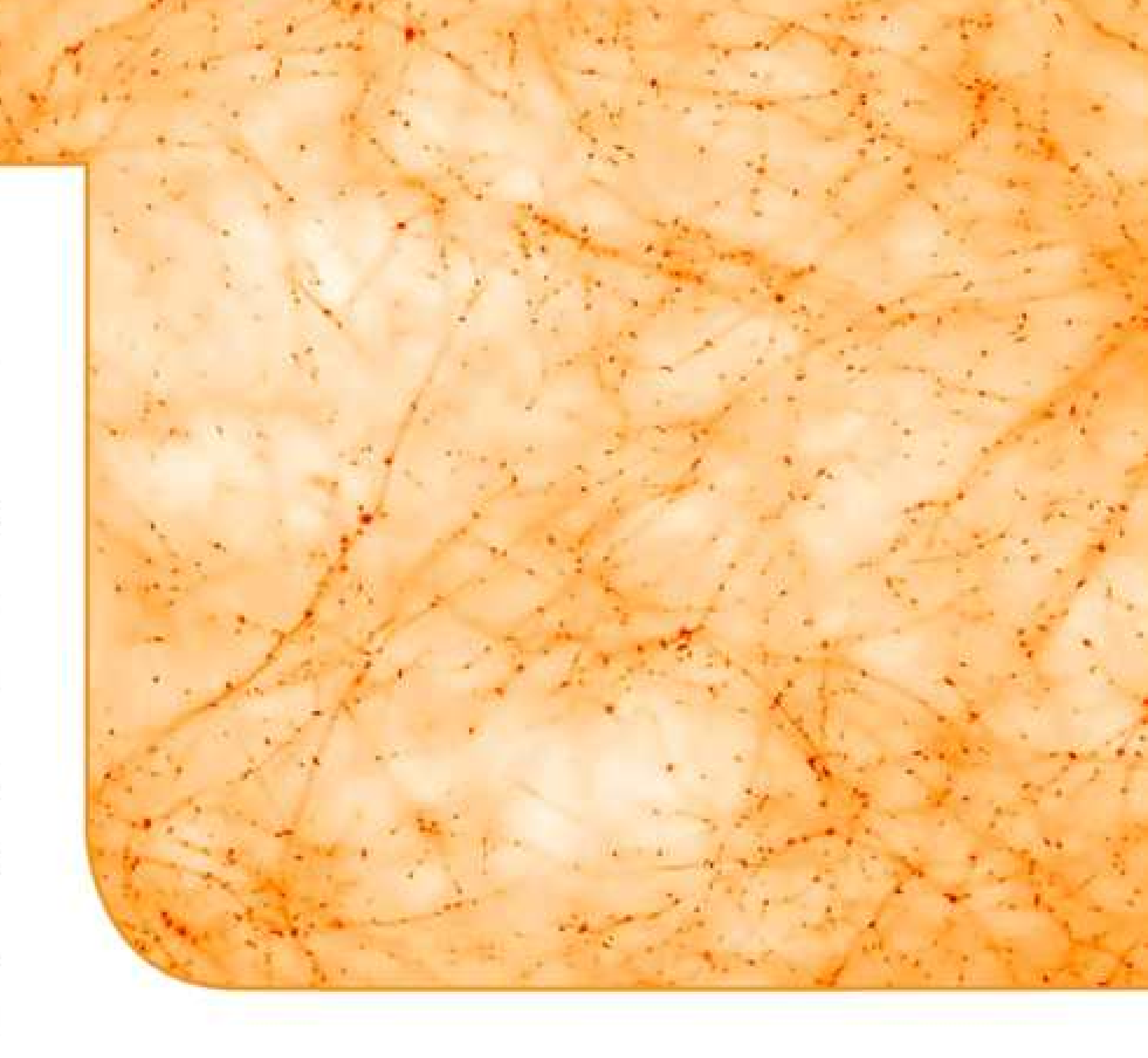
(24) «الشِّرك ومظاهره» (191).

(25) النَّوء: النُّهوض والطُّلوع، والنَّوء: السُّقوط، والنَّوء: النَّجم، سمِّي به لطلوعه وسقوطه، وقد يطلق على وقت الطُّلوع أو السُّقوط، انظر «لسان العرب» (4567/6).

(26) «الأمُّ» (551/2)، وقد نقلها الحافظ في «الفتح» (523/2) بتصرُّف، وعنه نقلها الميلي.

(27) «الشِّرك ومظاهره» (193-194).

(28) «الشِّرك ومظاهره» (194).



[الأنعام: 50]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 188]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس]، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، والآيات كثيرةٌ لا تحصى[29].

❋ ❋ ❋

❋ وأمَّا ضمانُهم الجنَّة لمريديهم[30]:

فقد قال ابنُ باديس في شرح حديث: «أَعنِّي عَلَى نَفْسكَ بكَثْرَة السُّجُود»[31]:

«لمَّا سأل هذا الصَّحابيُّ النَّبيَّ ﷺ؛ وعَده بالدُّعاء وأرشدَه إلى العمل الصَّالح، وهو كثرةُ السُّجود، ولم يَقل له النَّبيُّ ﷺ «إنَّني ضامنٌ لك ذلك»، ولا «أنت مضمون»، ولا «أنت في ضماني»؛ لأنَّ العبد لا يجوز له أن يضمنَ على خالقه بدون إذنه شيئًا، وإذا كانت الشَّفاعةُ الَّتي هي طلبٌ منه لا تكون عنده إلاَّ بإذنه؛ فكيف الضَّمان الَّذي هو التزامٌ على القطع؛ فمِن الغُرور العظيم والجهل الكبير والجراءة الكبرى على الله تعالى قولُ بعض المدَّعين: «روح راك ضامن»، وقول آخرين: «من دخل دارَ كذا فهو مضمون»، و«أنا ضامني الشَّيخ»، و«يا دار الضَّمان»، ونحو ذلك ممَّا يقوله الجاهلون ويُنكره العالمون ويبرأ منه الصالحون»[32].

وقال أبو يعلى الزَّواوي رحمه الله:

«أمَّا كون الميِّت الَّذي كان صالحًا ومات وليًّا أو غير وليٍّ، أو على حُسن الخاتمة أو على غير ذلك. عياذًا بالله ـ. فإنَّنا غيرُ مكلَّفين بذلك، ولا نحكُم لأحد بالجنَّة ولا بالنَّار، إلاَّ من ورد فيهم النَّصُّ، هذه هي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة»[33].

وقد استدلَّ ابن باديس لهذه العقيدة بحديث أمِّ العلاء الأنصاريَّة رضي الله عنها حين أثنَتْ على عثمان بن مظعون رضي الله عنه لمَّا مات، فقالت: لقد أكرمك الله، فقال لها النَّبيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيك أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ»، وقال لها: «والله إنِّي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، والله مَا أَدْري، وَأَنَا رَسُولُ الله، مَا يُفْعَلُ بي»[34].

قال ابن باديس:

«لقد ابتُلي كثيرٌ من النَّاس بالغُلوِّ فيمن يعتقدون فيهم الصَّلاح، فيجزمون لهم بما لا يعلَمه إلاَّ الله، ثمَّ زادوا على هذا فيزعمون أنَّ فلانًا مات على رُتبة كذا، وحصَل عند الله على منزلة كذا، ثمَّ زادوا على هذا فيزعمون أنَّ فلانًا يَشفع لأتباعه ويُعَدِّيهم على الصِّراط، أو يجعلُهم في بطنه ويمرُّ بهم وأنَّه يحضُر لهم عند الموت ويحضُر لهم عند السُّؤال، ويكون معهم في مواقف يوم القيامة؛ وكلُّ هذه الدَّعاوى انْبَنَت على الجزم بأنَّه ممَّن أكرمَه الله وأنَّه من أهل الجنَّة، ذلك الجزم الَّذي سمعتَ النَّهي والإنكارَ صريحَيْن فيه من النَّبيِّ ﷺ على أمِّ العلاء، في رجلٍ من السَّابقين الأوَّلين البدريِّين، وليست هذه الدَّعاوى المبنيَّةُ على المخالفة لهذا النَّهي النَّبويِّ الصَّريح قاصرةً على العوامِّ، بل تجدُها عند غيرهم وتسمعُها ممَّن يرفعون أنفسَهم عن طبقتهم، وتقرؤها في الكتب الَّتي عدَلت عن الأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة، والطَّريقة النَّبويَّة الواضحة، وذهبت في بُنيَّات الطَّريق، فكانت بلاءً على العامَّة وأشباههم ووبالاً.

فاحذر أيُّها الأخ المسلم... ولا تجزم بالكرامة على الله لأحد غير المنصوص عليه، وإن كان عظيمًا؛ فإنَّ قولَ رسول الله ﷺ أحقُّ وأعظمُ، وأَنْفُ من لا يقول هذا ولا يقبله مرغَم؛ وكلُّ من استعظمتَه ممَّن هو على جانب من الصَّلاح والخير؛ فإنَّه لا يداني مقامَ عثمان بن مظعون البدري في الصَّلاح والخير...

(29) انظر المصدر السَّابق (143. 144).

(30) يُنسَب لأحمد التِّيجاني قوله: «...فلمَّا رأيت ما صدر منه ﷺ وصرَّح لي بالمحبَّة بلسانه ﷺ، سألته لكلِّ من أحبَّني ولم يعادني بعدها ولكلِّ من أحسن لي بشيء من مثقال ذرَّة فأكثر ولم يعادني، وكذلك من أطعمني طعامه، كلُّهم يدخلون الجنَّة بلا حساب ولا عقاب، وسألته لكلِّ من أخذ عنِّي ذكرًا أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدَّم منها وما تأخَّر و... فقال لي ﷺ: ضَمِنْتُ لَهُمْ هَذَا كُلَّهُ ضَمَانَةً لا تَنْقَطِعُ حَتَّى تُجَاوِرَنِي أَنْتَ وَهُمْ في علِّيِّين...» انظر «الجامع لما افترق من درر العلوم الفايضة من بحار القطب المكتوم»، تأليف محمَّد بن المشري، مصوَّر مخطوط (45/1. 46).

(31) أخرجه مسلم في «صحيحه» (1094).

(32) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» لابن باديس (52).

(33) «جريدة البصائر» (44/1).

(34) أخرجه البخاري في «صحيحه» (1243).

ومهما أعدنا القولَ في هذا وأكَّدنا فإنَّنا لا نفيه حقَّه من الإنكار والاستئصال، لما نعلمُه من رسوخ هذه الضَّلالة وقدمها والتَّهاون فيها وعظيم التَّجرِّي على الله بها...»[35].

قال الميلي رحمه الله:

«وقد ضمن الإسلام الجنَّة على الوصف لا على الاسم، وذلك الوصفُ هو الإيمانُ الخالص والعملُ الصَّالح في غير ابتداع، قال تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام]»[36].

***

وأمَّا تسويغ ارتكاب المحرَّمات والاعتذارُ للمشايخ فيها؛ فهو نتيجةُ ما سبق من ضمان الجنَّة.

حكى الزَّاهريُّ عن طرقيٍّ قديم تائب أنَّه قال له: «وبالجملة فتعاليمُ الطَّريقة الَّتي كنتُ أعتنقُها ـ ولا أظنُّ غيرَها إلاَّ مثلَها ـ إنَّما ترمي إلى إسقاط التَّكاليف الشَّرعيَّة، فهي تدعو المريدَ أن يُحسن النِّيَّة في الشَّيخ وأن يعبدَه مخلصًا له الدِّين، وله أن يتَّكل على هذا الشَّيخ لكي يغفرَ له جميع السَّيِّئات والآثام وأن يجادلَ الله عنه يوم القيامة؛ وهذه العقيدة ربَّما أغرَت المريدَ باقتراف الفحشاء والمنكر اتِّكالاً على الشَّيخ، مع أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، وأنا أشهدُ على نفسي أنِّي اقترفتُ كثيرًا من الكبائر والموبقات اتِّكالاً على أنَّ الشيخَ سيجادلُ اللهَ يومَ القيامة، وأنَّه سيكون لي هنالك محاميًا ووكيلا...»[37].

هذا في المريدين، فما بالك بالشُّيوخ الَّذين تسقط عنهم التَّكاليف بسبب بلوغ مراتب اليقين[38]، وتنقلب المنكرات في حقِّهم طاعات.

قال تقيُّ الدِّين الهلالي:

«إنَّ مبنى الطَّريقة ـ أيِّ طريقة ـ على التَّسليم للشَّيخ على كلِّ حال، وأن يكون المريدُ عندَه كالميِّت عند مغسِّله، وأنشدوا:

وكن عنده كالميِّت عند مغسِّل
يُقلِّبه ما شاء وهو مطاوع

ويقولون: إذا رأيتَ امرأةً دخلت على شيخك فقُم سخِّن له الماء! فإذا رآه يفسُق بزنا أو قذف أو يَسرق لم ينهَه عن المنكر ولم يُقم عليه الحدَّ، فينقلب المنكرُ معروفًا متى فعلَه إلهُه، فبالله أيُّ ضلال أعظمُ من هذا؟ وأيُّ عقل أو دين يبقى مع ذلك؟ كذلك يطبع الله على قلوب الَّذين لا يعلمون»[39].

جاء في «جريدة الشِّهاب»: «خطب عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه النَّاسَ فقال: «إنَّ أناسًا كانوا يُؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّ الوحيَ قد انقطع، وإنَّما نأخذُكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم»[40]، فما بالُ أناس يرون شخصًا يشرب الخمرَ فيقولون: إنَّها تنقلب في فمه عسلا! ويرون شخصًا يرتكب المخالفات الشَّرعية فيقولون: إنَّه يفسد في النِّيَّة[41]...؟!»[42].

قال الميلي رحمه الله وهو يتحدَّث عن مريدي الطُّرقيَّة:

«والمعتقدون فيهم... يدافعون عن منكراتهم بأنَّ شريبهم إنَّما يشرَب عسلاً، أو أنَّه يُطفئ من نور الولاية الشَّديد غلَّته، وبأنَّ زانيَهم إنَّما زناه صورةٌ خياليَّةٌ يَمتحن بها أهلَ المرأة ومبلغَ عقيدتهم فيه...

فأمَّا أنَّ الخمر تعود عسلاً فمِن البلادة الكثيفة... وأمَّا أنَّ الشَّريب يطفئُ من نور الوَلاية فصحيحٌ، وتكرُّر ذلك يُخرج من ولاية الرَّحمن إلى

(35) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» لابن باديس (86 ـ 87)، وانظر كلامًا للشَّيخ تقيِّ الدِّين الهلالي في هذا المعنى في «جريدة الشِّهاب» (492/4).

(36) «الشِّرك ومظاهره» (439).

(37) «جريدة الشَّريعة» (5/7).

(38) نقل الميلي عن الشَّاطبي قوله في «الموافقات» (249/2): «إنَّ كثيرًا يتوهَّمون أنَّ الصُّوفيَّة أبيح لهم أشياء لم تُبَح لغيرهم؛ لأنَّهم ترقَّوْا عن رتبة العوامِّ المنهمكين في الشَّهوات إلى رتبة الملائكة الَّذين سُلبُوا الاتِّصاف بطلبها والميل إليها، فاستجازوا لمن ارتسم في طريقهم إباحة بعض الممنوعات في الشَّرع بناءً على اختصاصهم عن الجمهور... وهذا باب فتحته الزَّنادقة بقولهم: إنَّ التَّكليف خاصٌّ بالعوامِّ، ساقطٌ عن الخواصِّ» «الشِّرك ومظاهره» (438).

تنبيه: اليقين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر] ـ الذي يستدلُّون به ـ معناه الموت، وليس مرتبةً من مراتب المتَّقين، فقد قال الله تعالى عن الكفَّار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر].

(39) «جريدة الشِّهاب» (721/3)، وانظر «الشِّهاب» (427/3 ـ 428).

(40) أخرجه البخاري في «صحيحه» (2641).

(41) أي: نيَّة العُجب الَّتي وردت عليه بسبب صلاح عمله، فيرتكب المخالفات حتَّى لا يغترَّ بنفسه، ويفسد هذه النِّيَّة!

(42) «جريدة الشِّهاب» (566/1).

ولايـة الشَّيطان فـلا تـرى لـه نورًا ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12]... وأمَّـا أنَّ الزِّنـا صـورةٌ خياليَّةٌ فإنـكارٌ للحسِّ، وترويجٌ للدِّياثة»[43].

وهكـذا يلبِّـس أربـابُ الطُّـرق على العوامِّ دينَهم بأمثال هذه الشَّطحات[44]، وبما سـبق ذكره من الاعتقادات، بزعم أنَّها للمشايخ كرامات، وأنَّ أصحابها من أهل الولايات، ثمَّ يرمون من أنكر عليهم ذلـك ببُغض الأولياء وإنـكارِ كراماتهم والحطِّ من أقدارهم.

قال الميلي رحمه الله:

«وبعـدُ؛ فنحـن نُثبت كرامـات الأوليـاء[45]، ولا نُقيِّـد مـن ناحية العقل قـدرةَ الله بنوعٍ منهـا، ولكنَّا نقيِّدها من طريق الشَّرع بغير ما أعلمَنا الله أنَّه من خواصِّ الألوهيَّة، حتَّـى لا نغلوَ فيها غلوًّا ينتهي إلى الشِّرك والعياذ بالله.

وليست الكرامةُ هي دليلَ الولاية[46]، لالتباسـها على كثيرٍ من النَّاس بما ليس بكرامـةٍ، بـل الولايةُ هي دليلُ الكرامة، وليـس للكرامـة تأثـيرٌ في الأحـكام الشَّرعيَّة»[47].

وقال الإبراهيمي رحمه الله مخاطبًا بعض مريدي الطُّرقيَّة الغالين في شيوخهم:

«إنَّنـا لا نزال نقول لك ولأمثالك من العوامِّ: إنَّ الكرامات هي الجهةُ العقيمة في سِـيَرِ الصَّالحين، ونوضِّـح لكم ذلك بأنَّها ليسـت من أعمالهم الكسـبيَّة الَّتي يُقتـدى بهـم فيهـا، أمَّا الجهـة العامرةُ المنتجـة مـن سِـيَرِ الصَّـالحين فهـي أعمالُهم الصَّـالحة وأخلاقُهم الحميدة الَّتي يَقتـدي بهم النَّاسُ فيهـا، ويكونون فيها للنَّاس أسـوةً حسنةً فلماذا تتركون هـذه الأعمـال الَّتـي لا يكـون الصَّـالح صـالحًا إلاَّ بها، والَّتـي ينتفع بها كلُّ من يقتدي بهم فيها، وتهربون إلى الكرامات الَّتي ليسـت بشرطٍ في الصَّلاح الشَّرعيِّ وليسـت ممَّا يمكن الاقتداءُ فيه؟ ومعنى هـذا ـ إن كنـتَ لا تفهـم ـ أنَّ الصَّـالح لا يكـون صـالحًا إلاَّ بالأعمـال الصَّـالحة المشروعة ولو بغير كرامةٍ، ولكنَّه لا يكون صـالحًا بدون عمل ولو جَـرت على يديه جميعُ خوارق الدُّنيا...».

إلى أن قـال متهكِّمًـا: «وهـل يكـون خضـوعُ الأسـد للشَّـيخ فلان هو الدَّليلَ علـى صـلاحِه ووَلايتِـه واسـتحقاقه للتَّعظيـم منِّـي؟ إن كان هـذا هـو دليلَ الوَلايـة؛ فما أكثرَ أمثالَ الشَّـيخ فلان في «سِيرك[48] عمَّار»»[49].

نقَـل صـاحب ركـن «نجـوم أو رجوم»[50] في «جريدة الشِّهاب»، قولَ أبي يزيد البسـطامي: «لو نظرتم إلى الرَّجل وقـد أُعطي مـن الكرامات حتَّـى يتربَّع في الهـواء فـلا تغـترُّوا به حتَّـى تنظروا كيـف تجدونَه عند الأمـر والنَّهي وحفظ الحدود ومعرفة الشَّـريعة»، ثمَّ علَّق عليه قائلاً: «هذا الَّذي قاله أبو يزيد لا خلافَ فيه من أحدٍ من شيوخ الزُّهد المتقدِّمين، فهل يتَّعظ بـه الطُّرقيُّـون الَّذين يتَّبعون كلَّ ناعـقٍ، ويخلُقـون مـن المصـادفات كراماتٍ! ثمَّ يجعلون صاحبَها كالمعصوم لا يَعرِضـون أقوالَه وأفعالَه لا على سـنَّةٍ ولا على كتابٍ»[51].

هؤلاء هم أولياء الطُّرقيَّة ومريديهم، والَّذين جمع الميلي رحمه الله وصـفَهم بقوله: «أمَّـا الوليُّ عنـد النَّاس اليـوم؛ فهو إمَّا من انتصـب للإذن بـأوراد الطُّرقيَّة ولو كان في جهلـه بدينِـه مسـاويًا لحمـاره، وإمَّا من اشـتهر بالكَهانة وسـمَّوه حسب

(43) «الشِّرك ومظاهره» (435).

(44) وفي «طبقات الشَّعراني» كثيرٌ من أمثال هذه الحكايات الَّتي تُضحك وتُبكي في آنٍ واحدٍ.

(45) انظر الفرق بين معجزات الأنبياء وكَرامات الأولياء، وخوارق الشَّياطين والسَّحرة والكُهَّان في كتاب «النُّبوَّات» لشيخ الإسلام (416).

(46) نقل الميلي رحمه الله عن القرطبي في «تفسيره» (443/1 ـ 444) قوله: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ومن أظهر الله على يديه ممَّن ليس بنبيٍّ كراماتٍ وخوارقَ للعادات، فليس ذلك دالاًّ على وَلايته، خلافًا لبعض الصُّوفيَّة والرَّافضة»، «الشِّرك ومظاهره» (179).

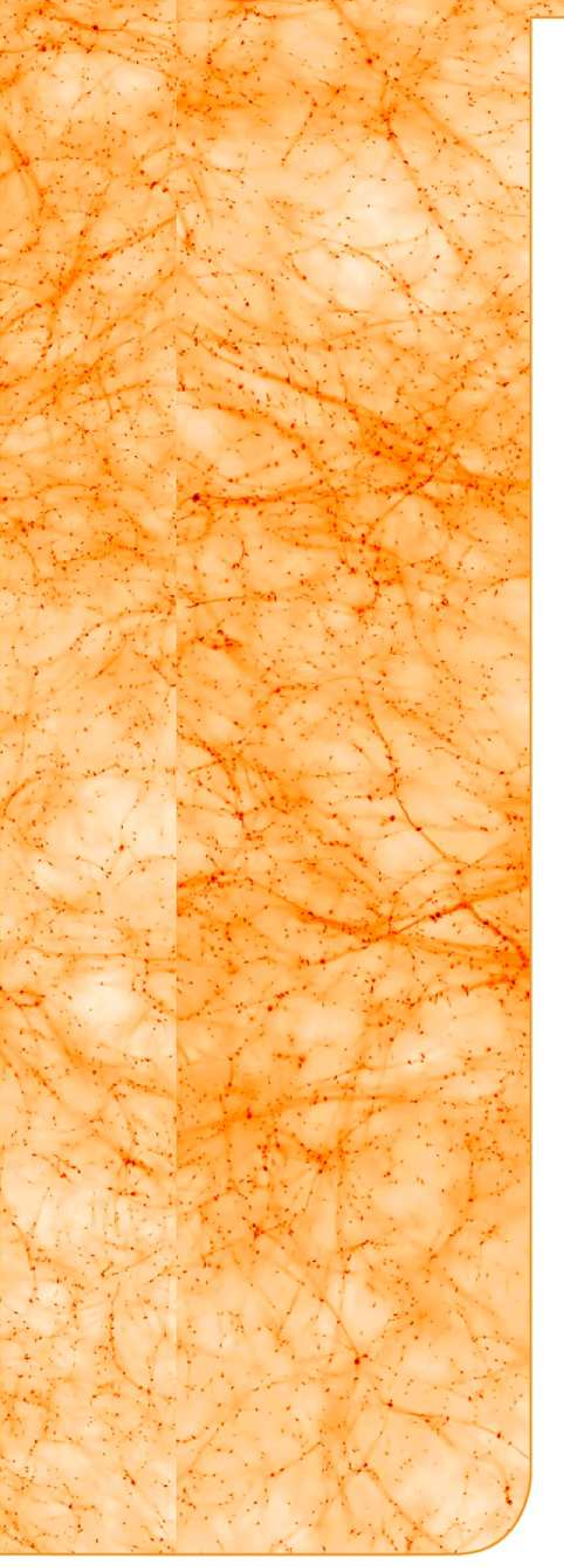
(47) «الشِّرك ومظاهره» (187 ـ 188).

(48) السِّيرك: كلمة أعجميَّةٌ، والمقصود بها مهرجان كبير يقوم منظِّموه بإحضار عدد من الحيوانات الوحشيَّة المدرَّبة، كالأسود والفيلة، يأمرها معلِّمها بالقيام بحركاتٍ مُنَظَّمَةٍ كالرَّكض والدَّوران والقفز فتستجيب له وتطيعه في ذلك.

(49) «آثار الإبراهيمي» (215/1 ـ 216).

(50) ويرمز لنفسه بـ«الأثري».

(51) «جريدة الشِّهاب» (153/1).



اصطلاحهم «مرابطًا»، ولو تجاهرَ بتركِ الصَّلاة وأعلنَ شربَ المسكرات، وإمَّا مَن انْتَمَى إلى مشهورٍ بالولاية، ولو كان إباحيًّا لا يحرِّم حرامًا، وحقُّ هؤلاء على النَّاس الجزمُ بولايتهم، وعدم التَّوقُّف في دخولهم الجنَّة، ثمَّ الطَّاعةُ العمياء ولو في معصيةِ الله، وبذلُ المال لهم ولو أخلَّ بحقٍّ زوجته وصبيته، والثِّقةُ بهم ولو خَلَوْا بالخُرُد[52] العِين[53].

وبعدُ؛ فهم المطلوبون في كلِّ شدَّة، ولكل محتَّم بهم عُدَّة، وهم حماةٌ للأشخاص وللقرى والمدن، كبيرِها وصغيرِها، حاضرِها وباديها، فما من قرية بلغتْ ما بلغت في البداوة أو الحضارة؛ إلاَّ ولها وليٌّ تنسَب إليه، فيقال: سِيدي فلانٌ مولى البلد الفلاني[54]...»[55].

❋ ❋ ❋

أمَّا الوليُّ عند أهل السُّنَّة فهو بالوصف لا بالتَّعيين، فكلُّ من كان لله تقيًّا كان لله وليًّا، وأمَّا التَّعيين فهو مبنيٌّ على الجزم بالجنَّة.

يقول الميلي رَحِمَهُ الله:

«ثمَّ من صحَّت وَلاَيَتُه، فهو من أهل الجنَّة قطعًا، ولكنَّا لا نجزم لأحدٍ بالجنَّة إلاَّ عن نصٍّ وارد فيه... وإذا لم يجُز لنا الجزمُ لأحد بالجنَّة مع عدم ورود النَّصِّ فيه؛ لم يجُز لنا الجزمُ بولايته»[56].

❋ ❋ ❋

وبعد هذا البيان لحقيقة الأولياء، والفرقِ بينهم وبين الأدعياء، أختم هذه المقالة بكلام الميلي الَّذي يقول فيه:

«علِم العلماء النَّاصحون الفرقَ بين الوَلايتين الشَّرعيَّة والشِّركيَّة؛ فأعلنوا به، وجهِله خصومُهم المغرضون، وأخفاه مَن علِمه منهم إيثارًا لدنيا يصيبُها أو امرأة ينكحها، فشوَّهوا وموَّهوا، ولبَّسوا ودلَّسوا، وبدَّعوا وشنَّعوا، ولمزوا ونبَزوا، ولقَّن ذلك مَن أعماه الغرض كلَّ من في قلبه مرض، ثمَّ اغترُّوا فهنَّؤوا نفوسَهم بالمحافظة على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وما سنَّتهم إلا سنَّةُ القبوريِّين والطُّرقيِّين، وما جماعتُهم إلاَّ جماعة المغرورين والطمَّاعين.

ونصيحتُنا لهؤلاء أن يَربَعوا على أنفسهم، ويسألوا أهلَ الذِّكر عن حقائق دينهم، ولا يقْفوا ما ليس لهم به علم، ويُخلِصوا في طلبِ الحقِّ؛ عسى أن يُوفَّقوا للظَّفر به، ولا يُخدعوا في عُلمائه المرشدين، فإنَّهم لهم من النَّاصحين»[57].

❋ ❋ ❋

(52) خُرُد: بضَمَّتين، جمع خريدة، وهي المرأة البِكر، «لسان العرب» (2/1128).

(53) عِين: جمع عَيْنَاء: من العَيَن وهو: عظم سواد العين وسعتها، «لسان العرب» (4/3196).

(54) بل بعض القرى والمدن اسمها كذلك، مثل: سيدي موسى، وسيدي عقبة، وسيدي بلعباس (أبو العبَّاس).

(55) «الشِّرك ومظاهره» (180).

(56) المصدر السَّابق (178).

(57) «الشِّرك ومظاهره» (182).



هل الشَّأنُ أنْ تُحِبَّ أم الشَّأنُ أن تُحَبَّ؟

محمد طالبي
الجزائر

لـمَّا كانت المحبَّةُ هي المحرِّكةَ بمَعنى أنَّ أصَلَ جميع الحركات هو الحُبُّ، كان كلُّ محبٍّ يَسعَى سعيًا حثيثًا في إرضاءِ محبُوبه... وهذا أمرٌ لا غرابةَ فيه. ولكنْ هل هذا يكفي لأنْ يحبَّكَ منْ تُحبُّه؟!... لذا ينبغي على كلِّ محبٍّ أنْ يسألَ نفسَه أوَّلاً هذا السُّؤال: هل الشَّأنُ أنْ أُحبَّ أم الشَّأنُ أنْ أُحَبَّ؟!



الجواب:

ممَّا لا شكَّ فيه - أخي المحبُّ - أنَّ الأُولى يمكن أنْ تُنال بالادِّعاء وإنْ لم يكنْ هُناك عملٌ ووفاءٌ!!

وأمَّا الثَّانيةَ فلا بُدَّ لها من دليل وحجَّة وبرهان، ومن طمع فيها بغير ذلك طمع في المستحيل؛ بدليل أنَّهُ لمَّا كثُر المدَّعون لمحبَّة الله طُولبُوا بإقامة الحجَّة والبيِّنَة على صحَّة الدَّعوى، إذْ لو يُعطى النَّاس بدعواهُم لادَّعى الخَليُّ حُرْقَةَ الشَّجيِّ، كما قالت اليهودُ والنَّصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18].

وادِّعاؤُهُم هذا جرَّهُم إلى ادِّعاء آخرَ حينَ قالُوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111].

ولكنْ لمَّا كان الشَّأنُ أنْ تحبَّ، لا أنْ تحبَّ، قال لهم سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾ [سورة البقرة] طالبهم بإقامة الحُجَّة والبرهان على صحَّة دَعواهُم.

كَذلكَ لمَّا ادَّعى أقوامٌ من أمَّة محمَّد ﷺ محبَّتهُ سبحانه؛ بيَّن لهم أنْ دَعواهم هذه لا تُقبلُ إلاَّ ببيِّنة، وهي قولُه جلَّ في علاه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

فتأخَّر عندئذ الخلقُ كلُّهم وثبتَ أتباعُ الحبيب المصطفى ﷺ في أفعاله وأقواله وأخلاقه وسائر أحواله.

فإلى هؤلاءِ وهؤلاءِ أقولُ: ليسُ الشَّأنُ أنْ تحبَّ ولكنَّ الشَّأنَ أنْ تحبَّ؟!...

فاحرصْ أخي - رعاكَ الله - على أنْ تكونَ ممَّن أحبَّهم الله؛ لأنَّ المحبِّينَ كثيرٌ، والمحبُّونَ قليلٌ.

والدَّعاوَى مَالم يُقيموا عليْها
بيِّنات أبناؤُهَا أدْعيَاءُ

ولْتكن حُجَّتك وبُرهانك على دَعوى المحبَّة وصحَّتها ما يأْتي:

1 - قراءةُ القرْآن بالتَّدبُّر والتَّفهُّم لمعانيه ومَا أُريدَ به[1].

2 - التَّقرُّبُ إلى الله بالنَّوافل بعدَ الفرائض؛ فإنَّها تُوصلُكَ إلى درجَة المحْبُوبيَّة بعدَ المحبَّة[2].

3 - دوامُ ذكْره - سبحانه - على كلِّ حال بالقلب واللِّسان والعمَل؛ لأنَّ نصيبَك منَ المحبَّة بقدْر نَصيبك منَ الذِّكْر[3].

4 - إيثارُ محَابِّه - سبحانه - علَى محابِّك عندَ غلَبات الهَوَى، مع التَّسَنُّم إلى محابِّه وإنْ صعُبَ المُرْتَقَى[4].

5 - مُطالَعةُ القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتُها ومعرفتُها، وكلَّما زادَت المعْرِفَةُ زادَ الحبُّ[5].

6 - مُشاهدَةُ برِّه وإحسانه وآلآئه ونعمه الباطنَة والظاهرَة.

7 - انكسارُ القلب بيْنَ يديْه - سبحانه - وليسَ في التَّعبير عنْ هذا المعنَى غيرَ الأسماء والعبارَات[6].

8 - الخلْوةُ به وقتَ النُّزُول الإلهيِّ لمناجاته وتلاوَة كلامه والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدَب العُبُوديَّة بيْن يديْه، ثمَّ ختْمُ ذلكَ بالاسْتغفار والتَّوبَة[7].

9 - مُجالَسةُ المحبِّينَ الصَّادقينَ والتقاطُ أطايب ثمرات كلامهم، كمَا يُنتقَى أطايبُ التَّمر، ولا تتكلَّم إلاَّ إذا ترجَّحتْ مصلَحةُ الكلام وعلمْتَ أنَّ فيه مزيدًا لحالكَ ومنفعةً لغيرِكَ[8].

10 - مبُاعدَةُ كلِّ سبَب يحُول بيْنَ القلب وبيْنَ الله سبحانه[9].

إنْ حقَّقتَ أخي هذه الأسباب غُرسَتْ شجَرَةُ المحبَّة في قلْبكَ، ولكنْ لا تنسَ أنْ تسْقيَها بماء الإخلاص لله والمتابعة للحبيب ﷺ؛ لتؤتيَ أُكلَها كلَّ حين بإذْن ربِّها، ولتكونَ ممَّن أَحَبَّ فأُحبَّ، وصدق فيه قوله ﷺ: «**فإذَا أَحبَّ اللهُ العَبْدَ قَالَ لجبْريلَ: قَدْ أَحْبَبْتُ فُلاَنًا فَأَحبَّهُ، فَيُحبُّهُ جبْريلُ، ثُمَّ يُنَادي في أَهْل السَّمَاء: إنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا؛ فَأَحبُّوهُ، فَيُحبُّهُ أَهْلُ السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْض**»[10].

وليسهُلَ عليْكَ أخي حفْظ هذه

(1) عملاً بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [سورة ص].

(2) عملاً بقوله الله تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيْء أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافل حَتَّى أُحبَّهُ» أخرجه البخاري (6502).

(3) عملاً بقوله ﷺ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ» قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله! قال: «الذَّاكرُونَ اللهَ كثيرًا، وَالذَّاكرَاتُ» أخرجه مسلم (2676).

(4) عملاً بقوله ﷺ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمَان: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه ممَّا سوَاهُمَا، وَأَنْ يُحبَّ المَرْءَ لاَ يُحبُّهُ إلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْر كَمَا يُكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّار» البخاري (16) ومسلم (43).

(5) عملاً بقوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ» أخرجه البخاري (50) مسلم (9).

(6) عملاً بقوله ﷺ لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما قال له: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي ظُلْمًا كَثيرًا، وَلاَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ، فَاغْفرْ لي مَغْفرَةً منْ عنْدكَ، وَارْحَمْني، إنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحيمُ» البخاري (834) ومسلم (2705).

(7) عملاً بقوله ﷺ: «يَنْزلُ اللهُ إلَى السَّمَاء الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَة حينَ يَمْضي ثُلُثُ اللَّيْل الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلكُ، أَنَا المَلكُ، مَنْ ذَا الَّذي يَدْعُوني فَأَسْتَجيبَ لَهُ! مَنْ ذَا الَّذي يَسْأَلُني فَأُعْطيَهُ! مَنْ ذَا الَّذي يَسْتَغْفرُني فَأَغْفرَ لَهُ! فَلاَ يَزَالُ كَذَلكَ حَتَّى يُضيءَ الفَجْرُ» أخرجه البخاري (1145) ومسلم (758).

(8) عملاً بقوله ﷺ: «مَثَلُ الجَليس الصَّالح كَمَثَل صَاحب المسْك إنْ لَمْ يُصبْكَ منْهُ شَيْءٌ أَصَابَكَ منْ ريحه» أخرجه أبو داود (4829)، وقوله ﷺ: «منْ حُسْن إسْلاَم المَرْء تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنيه» أخرجه التِّرمذي (2317).

(9) عملاً بقوله ﷺ: «ازْهَدْ في الدُّنْيَا يُحبَّكَ اللهُ» أخرجه ابن ماجة (4102)، وقوله ﷺ: «اتَّقِ المَحَارمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاس» أخرجه التِّرمذي (2305).

(10) أخرجه البخاري (3809) ومسلم (2637) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأسباب جعلتُها لك في نظم ميسَّر كأنَّهُ نثرٌ مفسَّرٌ؛ فقلتُ مستعينًا بالله وحْدَهُ.:

مَنْ يبتَغِي محبَّةَ الإلَــــه
فَلْيَصْرِف القلبَ عن المَلاَهي
وَلْيَعْتَــنِ بالحِفْظِ لِلْقُــرْآنِ
تدَبُّرًا وفهْـمًا لِلْمَـعَــانِـي
مُؤَدِّيًـا بحُـبٍّ لِلْفَـرَائِـض
وَتَـارِكًـا لِـكُـلِّ شُـغْلٍ عَـارِضِ
مُكَمِّــلاً لِلْفَـرْضِ بالنَّوافِـلِ
مُبْتَغِيًـا رِضَـا الإلَهِ الكَامِـلِ
مُدَاوِمًـا لِـذِكْـرِهِ دُونَ مَلَـلْ
بقَلْبِـهِ وَباللِّسَـانِ وَالـعَـمَـلْ
وَمُـؤْثِـرًا لِحُبِّــهِ عَـنِ الهَوَى
مُبَـاعِدًا لِكُلِّ مَا يُجْنِي الرَّدَى
مُـشَـاهِدًا لِلْبِـرِّ وَالإحْسَـانِ
كَـذَا الآلاءِ وَالنِّـعَـمِ سِيَّـانِ
مُشَاهِدًا بِالقَـلْبِ لِلصِّـفَـاتِ
وَرَاجِيًـا لِلْـفَـوْزِ بِالجَـنَّــاتِ
مُطَـالِعًـا بِالقَلْبِ لِلأَسْمَــاءِ
مُغْـتَـنِمًا لِلْخَـيْـرِ بِالدُّعَــاءِ
مُخْـتَـلِـيًـا بِـهِ وَقْـتَ النُّـزُولِ
فِي آخِرِ اللَّيْـلِ عَلَى المَنْقُـولِ
مُسْـتَـغْـفِـرًا وَدَاعِـيًـا وَطَـالِبًا
وَخَـاشِعًـا وَرَاغِـبًـا وَرَاهِـبًـا
وَآخِرُ الأَسْـبَـابِ يَـا إخْـوَانِـي
مَجَـالِـسُ الخَيْـرِ مَعَ الخِـلاَّنِ
كَذَا انْكِسَارُ القَلْبِ لِلرَّحْمَـانِ
مَعَ اتِّبَـاعٍ لِلنَّبِي الـعَـدْنَـانِـي
أَبْيَـاتُـنَـا بِجُـمَّـلٍ تُـعَـدُّ فِي
(أَهْـزُ) كَـفَى رَاجِيًا عَفْوَ العَلِيِّ

قـال ابـنُ القيِّـم رَحِمَهُ اللهُ: «فمنْ هـذه الأسبـاب العَشَـرة وَصَلَ المحبُّـونَ إلى منازِلِ المَحَبَّة ودَخلُوا علَى الحبيب، ومَلاكُ ذلكَ كلِّه أمْـران، استعدادُ الرُّوحِ لهذَا الشَّأنِ وانفتَاح عيْنِ البَصيرةِ وباللهِ التَّوفيقُ»[11] اهـ.

قلتُ: فلْنجتهدْ إخواني في إدْراك المعالي، بفتْح عيْن البصيرة والاستعْداد التَّامِّ لما ينفعُنا للقَاء مَنْ لا يَنفعُ عندَهُ مالٌ ولا بنونَ إلاَّ مَـنْ أتاهُ بقلب سليـم؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ نُحَبَّ لا أنْ نُحبَّ. وقدْ عرفْتَ الفرْق بينهُمَا.، فذكِّرْ نفسَك يا منْ تحبُّ. وكلَّ مُدَّعٍ للمحبَّة مثِّلكَ بقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَان].

اللَّهُـمَّ إنِّي أَسْألُـكَ حُبَّكَ وحُبَّ من يُحبُّك وحُـبَّ منْ يَنفعُني حُبُّه عندَكَ.

وأَسْألُـكَ العملَ الَّذي يُبلِّغُني حُبَّـك ويُوصلُني أعلى الدَّرجاتِ عندَكَ.

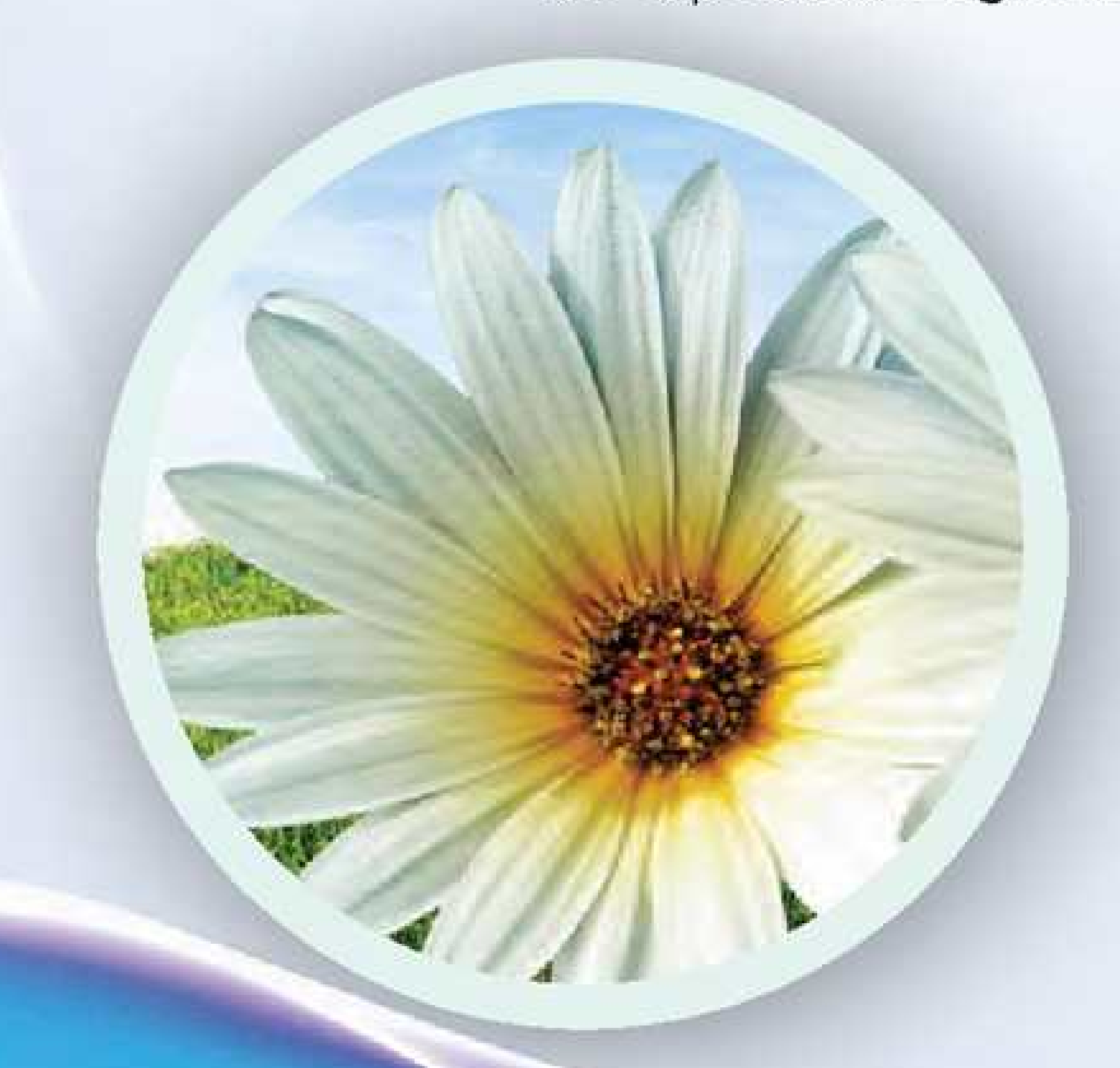
اللَّهُمَّ اجْعل حُبَّك أَحَبَّ إليَّ منْ نَفْسي وأَهْلِي ومَالي.

اللَّهُـمَّ مَا رزقْتَني ممَّـا أُحبُّ فاجْعلَهُ قُـوَّةً لي فيمَا تُحبُّ إنَّكَ علَـى كلِّ شَـيءٍ قديرٌ وبالإجابَـةِ جَديرٌ، ولاَ حـوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيم.

واللهُ يهدِي منْ يشاءُ إلَى صِراطٍ مُستقيمٍ.

---

(11) «مدارج السَّالكين» لابن القيِّم (3×19).



أ.د.محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في شراء الأموال المحجوزة مصادرة

■ **السؤال:**

هل يجوز شراء ما صادرته الدَّولة من السِّلع والبضائع المهرَّبة بالمزاد العلني؟

■ **الجواب:**

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالبضائعُ والسِّلعُ ومختلَفُ الأموالِ غير المرخَّص فيها الَّتي أخذتها الدَّولة من أصحابها مصادرةً، سواء كان تبريرُ مصادرتها مصبوغًا بالشَّرعيَّة من تحقيق المصلحة العامَّة للأمَّة، والمحافظة على استقرارها اقتصاديًّا واجتماعيًّا، أو تجرَّدت مُصادَرتها من أي صبغةٍ شرعيَّة؛ فإنَّ الحيطة الدِّينيَّة تقتضي اتقاءَ المشاركة في التِّجارة على ممتلكات الغير، سواء بالمزاد العَلَني أو السِّرِّي، خشيةَ الوقوع في أكلِ أموال النَّاس بالباطل المحرَّم بنصِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، وقوله ﷺ: «**كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[1].

وتفصيل تعليل ترك التِّجارة فيها لا يخرج عن ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تكون مصادرةُ الدَّولة لأملاك النَّاس بغير سببٍ شرعيٍّ؛ فإنَّ شراء البضائع المهرَّبة ـ والحال هذه ـ يُعَدُّ شراء المغصوب من الغاصب، سواءٌ كانا شخصين طبيعيَّيْن أو شخصين معنويَّيْن أو أحدهما طبيعيًّا والآخر معنويًّا اعتباريًّا.

(1) أخرجه مسلم (6706)، وأبو داود (4884)، والتِّرمذي (2052)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



الحالة الثَّانية: أن تكون مصادرةُ الدَّولة لأملاكهم عقوبةً استحقاقيَّةً يشفع لها مذهب المجوِّزين للعقوبة التَّعزيريَّة الماليَّة؛ فإنَّ المواضع المخصوصة للتَّعزير بالمال ليس فيها ما يجيز للحاكم أن يسلب النَّاسَ أموالهم بما في يده من سلطة التَّعزير.

وأقوى الأقوال في التَّعزير المالي منعُ هذه العقوبة؛ لما فيها من التَّعدِّي على حقِّ المسلم المالي ممَّا لا يرضاه الله تعالى إلاَّ في حدود ما جاءت به النُّصوص من الجواز، وهي تكاد أن تكون محصورةً في مواضع ثلاثة: الإتلاف، والتَّغيير، والتَّغريم، والمطلوب في هذه المسألة منتفٍ.

هذا، وعلى تقدير أنَّ المسألة خلافيَّةٌ؛ فإنَّ ترك الشِّراء وعموم التِّجارة فيما فيه شبهة الحرام أَحْوَطُ للدِّين وأبرأُ للذِّمَّة، لقوله ﷺ: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ**»[2].

الحالة الثَّالثة: إذا كان صاحب المتاع المحجوزِ مصادرةً يأذن لغيره شراء بضاعته بطيب نفسٍ منه، أو يتنازل له فيها فجائزٌ لقوله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»[3].

والعلمُ عند الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(2) أخرجه البخاري (50)، ومسلم (4094)، من حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(3) أخرجه أحمد (20695)، من حديث أبي حرَّة الرَّقاشي عن عمِّه، والحديث صحَّحه الألباني في «الإرواء» (5/279).

إلزام الزَّبائن
شراء سلعة غير مرغوبٍ فيها

■ **السُّؤال:**

معاملة تجاريَّة تعمُّ بها البلوى وهي: أن تكون لتاجر ما سلعة غير مرغوب فيها لرداءتها أو لعيب فيها أو لغير ذلك، وتكون عنده سلعة على عكسها (مرغوب فيها ويقبل النَّاس على شرائها بكثرة) فيشترط على من يريد شراء هذه السِّلعة المرغوب فيها أن يأخذ معها السِّلعة غير المرغوب فيها طوعًا أو كرهًا، فما حكم هذا الشَّرط؟

■ **الجواب:**

اعلم - وفَّقك الله - إلى أنَّ مثل هذه الشُّروط فاسدةٌ تُبطِلُ العقد من أصله؛ لكونها اشتراط عقد في عقد، ووجه فساده اشتراطه على صاحبه عقدًا آخر ضمنه، كأن يبيعه شيئًا بشرط أن يبيعه شيئًا آخر، أو يقرضه، أو يزوِّجه، أو يشتري منه ونحو ذلك.

ودليل الفساد قوله ﷺ: «لا يَحِلُّ سَلَفٌ وبَيْعٌ، ولا شَرْطَانِ في بَيْعٍ»[4]، وقد ورد النَّهي عن البيعتين في بيعةٍ من حديث عبد الله بن مسعود، وحديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم كما في «سنن أبي داود» وغيره[5].

غير أنَّه إذا كان تعدُّد العقد من طرف واحد جاز، كأن يقول له: بعتك السَّيارة وأجَّرتُك البيت بكذا دينار، وإذا كان اللَّفظ الفاسد لا يلتفت إليه - عند الجمهور - إذا كان معلومًا حلالاً، فمن باب أولى إذا كان فاسدًا أو رديئًا أو مَعيبًا.

أمَّا إذا اشترط أحد الطَّرفين نفعًا معلومًا في البيع سواء كان الاشتراط من البائع كأن يسكن الدَّار المبيعة شهرًا، أو من المشتري كاشتراط إيصال المبيع إلى محلِّ إقامته ونحو ذلك إذا كانت تلك المنفعة ممَّا يجوز استبقاؤها في ملك الغير؛ فإنَّ البيعَ صحيحٌ مع الشُّروط العائدة للبائع أو المشتري من منافع معلومة في المبيع، وهو مذهب المحقِّقين من أهل العلم وبه قال ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم وغيرهما[6]؛ إذ الأصل في العقود والشُّروط الإباحة والجواز ولا يصرف عن هذا الأصل لغير دليل شرعيٍّ والأدلَّة توافق هذا الأصل ولا تخالفه منها: «المسلمون على شروطهم إلا شرطا حرّم حلالا أو أحلّ حراما»[7] وحديث جابر عند الشيخين في قوله: «... واستثنيت حملانه إلى أهلي»[8] وحديثه أنَّ النَّبيَّ ﷺ «نهى عن الثُّنيا إلاَّ أن تُعْلَمَ»[9].

وعليه؛ فإنَّ مثلَ هذه الشُّروط الَّتي لا تتضمَّن أيَّ محذور ولا مفسدة فيها مطلقًا، وليست وسيلةً إلى مفسدة فهي باقية على الأصل المُقرَّر في المعاملات، والله أعلم.



(4) أخرجه أبو داود (3504)، والتِّرمذي (1234)، والنَّسائي (4611)، وأحمد (6671)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه، والحديث حسَّنه الألباني في «الإرواء» (5/147).

(5) انظر تخريج هذه الأحاديث والحكم عليها في «الإرواء» (5/148 إلى 151).

(6) انظر كتاب «مختارات من نصوص حديثيَّة في فقه المعاملات الماليَّة» للشَّيخ أبي عبد المعزِّ - حفظه الله - (ص50 إلى 71).

(7) أخرجه التِّرمذي (1352)، والدَّارقطني (3/27)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (6/79)، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه، قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (29/147): «وهذه الأسانيد وإن كان الواحد منها ضعيفًا فاجتماعها من طرق يشدُّ بعضُها بعضًا»، والحديث صحَّحه بمجموع طرقه الألباني في «الإرواء» (1303).

(8) أخرجه البخاري (2718) ومسلم (715).

(9) أخرجه مسلم (1536).

في حكم هدايا العمال

■ **السؤال:**

رجل يعمل في شركة للهندسة المعماريَّة أو التِّقنيَّة وهو يتعامل مع مقاولين مشرفين على بناء مشاريع (سكنات) بحيث يراقب ويتتبَّع جميع مراحل أعمال البناء وفي بعض الأحيان يعطون له مبالغ ماليَّة، فهو يسأل عن هذه المعاملات هل هي داخلة في الرِّشوة أم لا؟

❋ ❋ ❋

■ **الجواب:**

لا تجوز العطيَّة إلى العُمَّال ولا الهديَّة إليهم مهما كانت صفتها ووجوه تبريرها؛ لأنَّ ذلك معدود من أكل أموال النَّاس بالباطل المنهيِّ عنه في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة]، وقال رسول الله ﷺ في حديث أبي حُمَيْد السَّاعدي رضي الله عنه: «فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على العَمَلِ مِمَّا ولاَّني اللهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لي، أَفَلاَ جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ»[10] الحديث...، ولقوله ﷺ: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ»[11]

والواجب التَّعاون على البرِّ والتَّقوى فهو أساس التَّعامل الأخوي وتجنُّب تعكير التَّعامل بالتَّعاون على الإثم والعدوان، والعلم عند الله تعالى.

(10) أخرجه البخاري (6979)، ومسلم (4845)، من حديث أبي حُمَيْد السَّاعدي رضي الله عنه.

(11) أخرجه أبو داود (2945)، وابن خزيمة في «صحيحه» (2178)، والحاكم (1424)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (13401)، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، والحديث صحَّحه ابن الملقِّن في «البدر المنير» (9/564)، والألباني في «صحيح الجامع» (6023)، وفي «غاية المرام» (460).

في شرط الولاية على المسلمة

■ **السؤال:**

أودُّ الزَّواجَ من امرأة مَجَرِيَّة مسلمة، ووالداها نصرانيَّان، فمن يكون وليُّها؟ وهل يجوز الاكتفاء بالعقد الشَّرعي؛ لأنَّ توثيقه يتطلَّب إجراءات معقَّدَة؟

■ **الجواب:**

المسلمة تتزوَّج في كلِّ الأحوال، ومن شرط الوليِّ: الإسلامُ إذا كان المولى عليه مسلمًا، وعليه فلا يجوز أن يكون لغير المسلم ولاية على المسلم ولو كان أباها، لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء]، ولقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]، فإن لم يجد وليًّا فعليه بالقاضي إن قدر الوصول إليه، لقوله ﷺ: «فَإِنْ اشْتَجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ»[12]، فإن تعذَّر عليه الوصول إلى السُّلطان، وأمكنه أن يزوِّجه إمامٌ راتبٌ في أيِّ مسجد فيزوِّجها ويكون وليَّها في هذه الحال، وإلاَّ فيزوِّجها أيُّ مسلم من المسلمين؛ لأنَّ النَّاس لابدَّ لهم من التَّزويج، وإنَّما يعملون فيه بأحسن ما يمكن، والمسلم الَّذي يتولَّى أمرها ويزوِّجها بالنَّظر إلى فقدان الوليِّ فإنَّ ولايَتَه من قبيل التَّحكيم، و«المحكَّم يقوم مقام الحاكم» كما نُقِلَ ذلك عن الشَّافعي.

ولا يكفي العقد الشَّرعي بمفرده في استمرار الحياة الزوجيَّة لابدَّ من أن يصب في شكله الرَّسمي لدى المصالح المعنيَّة حتَّى تُصانَ كافَّة الحقوق الَّتي للزَّوجين الحالية والمآليَّة كالميراث والأولاد وما إلى ذلك.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

❋ ❋ ❋

(12) أخرجه أبو داود (2083)، وابن ماجه (1879)، والدَّارمي (2106)، وابن حبَّان (4075)، والحاكم (2708)، وأحمد (24205)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (1840).



جزءٌ فيه مسألة في صلاة النَّبيِّ ﷺ بالأنبياء عليهم السلام ليلة الإسراء

للحافظ عبد الغني المقدسي (600 هـ)



خالد حمودة
الجزائر

فهذا «جزءٌ فيه مسألة في صلاة النَّبيِّ ﷺ بالأنبياء عليهم السلام ليلة الإسراء» للشَّيخ الإمام الأوحد الحافظ جبلِ العلم والسُّنَّة: تقيِّ الدِّين أبي محمَّد عبد الغني ابن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجمَّاعيلي.

وُلِدَ سنة (541) أو (544).

ورحل إلى الأقطار البعيدة في طلب الحديث، وكان رفيقه في أكثر رحلته ابنَ خاله الإمام مُوفَّق الدِّين ابن قدامة المقدسي صاحب كتاب «المغني» في الفقه.

أمعن في الطَّلب، وكتب عن أبي طاهر السِّلفي نحوًا من ألف جزءٍ، وكتب عن كثير من المشايخ.

وكان لا يضيِّع شيئًا من زمانه بلا فائدة، بلغ في الجلالة والمهابة مبلغًا عظيمًا، ومن صور ذلك ما وصفه محمود بن سلامة الحرَّاني لمَّا قال: «كان الحافظ يصطفُّ النَّاس في السُّوق ينظرون إليه، ولو أقام بأصبهان مدَّة وأراد أن يملكها لملكها».

وقال التَّاج الكندي: «لم يكن بعد الدَّارقطني مثل الحافظ عبد الغني».

من تآليفه: «عمدة الأحكام»، و«الكمال في أسماء الرِّجال» الَّذي هو أصل المصنَّفات في هذا الباب من بعده، وله غيرهما كثيرٌ من الكتب الصِّغار والكبار.

توفِّي رحمه الله سنة (600 هـ)[1].

***

(1) أفرد له الحافظ ضياء الدِّين المقدسي ترجمةً حافلةً في جُزْءَيْن، وقد أتى على مهمَّاتها الحافظُ الذَّهبي في «سير أعلام النُّبلاء» (21/443 ـ 471)، وابن رجب في «الذَّيل على طبقات الحنابلة» (3/1 ـ 56)، ومنهما لخَّصت هذه الإلماعة.



وهـذا الجـزء محـفـوظٌ في المكتبة الظَّاهريَّة، ضمن المجموع (رقم: 71) الورقة (82/أ-85/ب).

وقد كَتب عليه الحافظ عبد الغني بخطِّه طبقةَ السَّماع للشَّيخ الصَّالح القـدوة المحـدِّث الـزَّاهـد أبـي العبَّاس أحمد بن سلامة بن أحمد بن سليمان النَّجار الحنبلي المتوفَّى سنة (646) بحرَّان رَحِمَهُ اللهُ[2] مع آخرين.

وكتب عليه هو - أعني النَّجَّار - سماعًا لجماعة من الأشياخ، وأسمعها - أيضًا - من سمعَ منـه، وجملة ما عليها من السَّماعات غير الَّذي بخطِّ المؤلِّف عشرة سماعات مختلفة التَّواريخ، فهي من آثار العناية البالغة الَّتي ترفع من شأن هذه المسألة المنقولة عن الإمام الجبل رَحِمَهُ اللهُ.

وهو يتضمَّن الكلام على مسألة مهمَّة متعلِّقة بأحدِ أصول الإيمـان الَّـذي هوَ الإيمانُ باليوم الآخر، وهي مسألةُ حياة الأنبياء في البـرزخ ومستقرِّ أرواحهم، وفيها لأهل العلم ثلاثة أقوال[3]:

أحدهـا: أنَّـهم أحيـاء حيـاةً كاملةً أكملَ من حياتنا الدُّنيويَّة، بأرواحهم وأجسادهم، وهـذا أبعدُ الأقـوال، وهو الَّـذي يقول به السُّبكي[4] وغـيره، وهو أحـد مداخلهم إلى الخـرافة والتَّعلُّق بالقبور، وظاهر كلام البيهقي في «حياة الأنبياء» (4-5) أنَّه مذهبه.

الثَّـاني: أنَّـهم أمـواتٌ في قبورهم، وأنَّ النبَّي ﷺ رآهم في المعراج وأمَّهم في الإســراء بأجسـادهـم، وهـو الَّـذي أفتى به الشَّيخ عبد الغني صاحب هذا الجزء، وهو ظاهر قول الحافظ الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّه قال في ترجمة وكيع من «سير أعلام النُّبلاء» (571/7): «وحياتُهم بلا ريب أتمُّ وأشرف من حياة الشُّهداء الَّذين هم بنصِّ الكتاب: أحيـاء عند ربهم يُرزَقُون، وهؤلاء حياتهم الآن الَّتي في عالم البرزخ حقٌّ، ولكن ليست هي حياة الدُّنيا من كلِّ وجه، ولا حياة أهل الجنَّة من كلِّ وجـه، ولهم شبه بحياة أهـل الكهف، ومـنْ ذلـك اجتماع آدم وموسى لَمَّا احتجَّ عليه موسى، وحجَّه آدم بالعلم السَّابق، كـان اجتماعهما حقًّا، وهما في عـالم البـرزخ، وكذلك نبيُّنا ﷺ أخبر أنَّه رأى في السَّماوات آدم وموسى وإبراهيم وإدريس وعيسى وسـلَّم عليهم، وطـالت محـاورتـه مع موسى، هذا كلُّه حقٌّ، والَّذي منهم لم يَذُقِ الموتَ بعدُ هو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الثَّـالـث: أنَّـهـم الآن أمـــواتٌ، وأجسادهم في قبورهم، وأرواحهم هي الَّتي تروح وتجيء، وهـذا هو الصَّحيح الَّذي تؤيِّدُه الأدلَّة.

وانظر: «الرُّوح» لابن القيِّم (431)، و«الصَّـارم المُنْكِي» لابن عبد الهادي (ص217) ، و«شرح الطَّحاويَّة» لابن أبي العزِّ الحنفي (584/1)، وفي كتاب «أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسُّنَّة» (193-197) تحقيقٌ متينٌ فيها.




(2) ترجمته في: «العبر» (188/5)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (536/3)، و«شذرات الذَّهب» (404/7).

(3) أمَّا مستقرُّ أرواح بني آدم على العموم ففيها من الاختلاف أكثر من ذلك، وقد استوفى أقوالَ النَّاس فيها بأدلَّتها وما يَردُ عليها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «الرُّوح» (374-431)، ولخصَّه عنه ابن أبي العزِّ في «شرح الطَّحاويَّة» (582/1-584).

(4) «شفاء السِّقام» (400-409).

نصُّ الجزء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سألتَ ـ أحسن الله لنا ولك التَّوفيق لما يحبُّ ويرضى من القول والنيَّة والعمل، وأعاذنا وإيَّاك من الخطأ والزَّلل ـ عن صلاة نبيِّنا وسيِّدنا المصطفى سيِّد الخلق في الآخرة والأولى بإخوانه من النَّبيِّين والمُرْسَلين ليلةَ الإسراء، هل صلَّى بأجسادهم أم بأرواحهم؟

❋❋❋

فاعلم ـ رحمك الله وهداك لرشدك ـ أنَّ مذهبَ أهل الحقِّ القائلين بكتاب الله القابلين لسنة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تسليمًا أنَّ الإسراء برسول الله ﷺ كان بجسده وروحه يقظةً لا منامًا، لا ينكر ذلك مسلمٌ، ولا يأباه إلاَّ مجرمٌ[5]، فقد نطق به نصُّ القرآن، وورد به الخبر الصَّحيح، فقال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1][6]، وتواترت الأحاديث الصَّحيحة الَّتي لا يدفعها من في قلبه مثقالُ ذرَّة من إيمان بأنَّه أُسريَ به إلى بيت المقدس[7]، ثمَّ عُرج به من ليلته إلى فوق سبع سماوات إلى سِدْرَة المُنْتَهى، وكان من ربِّه قابَ قوسَيْن أو أدنى[8].

فإذا ثبت هذا؛ فاعلم أنَّ الأنبياء في قبورهم أحياءُ لم تَبْلَ أجسادُهم، وقد صحَّت الرِّوايةُ بذلك عن رسول الله ﷺ[9]، وهذه صفة الأجساد لا صفة الأرواح، وقد أخبر ﷺ أنَّه لمَّا لقيَ موسى عليه السلام بعد أن فَرَضَ اللهُ عليه خمسينَ صلاةً فقال له: «**إنِّي جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وعَالَجْتُ بني إسْرَائيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَة فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ**»، وتردَّد مرارًا بين ربِّه ﷻ وبين موسى عليه السلام إلى أن أمره بخمس صلوات[10]، ومحالٌ أن يكون هذا الخطاب من روح موسى دون جسده، والقائل بأنَّ هذا من الرُّوح مخالفٌ للنَّقل والعقل[11]، متعسِّفٌ متكلِّفٌ، ويمتنع أن يراهم في أجسادهم ويصفها ويخاطبهم ويخاطبونه ثمَّ

---

(5) قد حكى هذا الإجماع ـ أيضًا ـ في «عقيدته» (ق7/أ)، وظاهر عبارته هنا تكفير من قال بخلاف ما قرَّره؛ لأنَّه نفى أن يكون خلافُه من قول أهل الإسلام، وصرَّح بهذا المفهوم في «عقيدته».
وقد ذهب محمَّد بن إسحاق ـ صاحب السِّيرة ـ إلى أنَّه كان منامًا، وحكى ذلك عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، والمحقِّقون على أنَّ ذلك لم يثبت عنهما.
وانظر: «تفسير ابن جرير» (14/445 ـ 448)، و«الشَّريعة» للآجُرِّي (2/312 ـ 313)، و«الحجَّة في بيان المحجَّة» (1/550 ـ 552)، و«الشِّفا» للقاضي عياض (1/187 ـ 195)، و«المفهم» للقرطبي (1/384 ـ 385).

(6) الشَّاهد من الآية في قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ فإنَّ حقيقةَ العبد هي الرُّوح والجسد معًا، وبهذه الآية احتجَّ أبو العبَّاس ابن سُرَيج وغيره.
انظر: «الحجَّة في بيان المحجَّة» لقوام السُّنة الأصبهاني (1/487).

(7) وقد استوفى أحاديثَ الباب بألفاظها وطُرُقها وعللها الحافظ ابن كثير في صدر تفسير سورة الإسراء (8/374 ـ 430).

(8) هذا أحد قولَي المفسِّرين في الآية، والقول الآخر أنَّ المراد به جبريل عليه السلام، وهو أصحُّ القولين، لِمَا أخرج مسلم (177) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنا أوَّل هذه الأمَّة سأل رسولَ الله ﷺ عنها، أي: عن هذه الآية فقال: «**إنَّما هو جبْريلُ لم أره على صورته الَّتي خُلقَ عليها إلاَّ هاتين المرَّتين، رأيته منهبطًا من السَّماء إلى الأرض سادًّا عظَمُ خلقه ما بين السَّماء إلى الأرض**».
وأمَّا ما ورد في «صحيح البخاري» (3570، 7517) في حديث الإسراء: «ثمَّ علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلاَّ الله ﷻ، حتَّى جاء سدْرَةَ المنتهى، ودنا الجبَّار ربُّ العزَّة فتدلَّى حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى»، فهي ألفاظٌ تفرَّد بها شريك بن عبد الله، وخالفه غيره ممَّن روى الحديث المذكور من أئمَّة الحفظ والإتقان فلم يذكروها.
قال عبد الحقّ في «الجمع بين الصَّحيحين» بعد أن ذَكَرَ رواية شريك هذه: «قد زاد فيه زيادةً مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى حديثَ الإسراء جماعةٌ من الحُفَّاظ المتقنين والأئمَّة المشهورين، كابن شهاب وثابت البناني وقتادة، فلم يأت أحدٌ منهم بما أتى به شريك، وشريكٌ ليس بالحافظ عند أهل الحديث».
انظر: «زاد المعاد» (3/78)، و«تفسير ابن كثير» (5/7)، و«فتح الباري» (13/404، 405).

(9) يشير بذلك إلى ما أخرجه أحمد (16162) وأبو داود (1047) والنَّسائي (1374) وابن ماجة (1085) من حديث أوس ابن أبي أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ أفْضَل أَيَّامكُمْ يَوْمُ الجُمُعَة، فيه خُلقَ آدَمُ، وفيه قُبضَ، وفيه النَّفْخَةُ، وفيه الصَّعْقَةُ، فَأَكْثرُوا عَلَيَّ منَ الصَّلاَة فيه؛ فإنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**»، فقالوا: يا رسول الله! وكيف تُعرَض عليك صلاتنا وقد أرمْتَ؟ ـ يعني وقد بَليتَ ـ، قال: «**إنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ على الأَرْض أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبيَاء صَلَوَاتُ الله عَلَيْهمْ**».
قال ابن عبد الهادي في «الصَّارم المنكي» (ص 200): «رواته كلُّهم مشهورون بالصِّدق والأمانة والثِّقة والعدالة، ولذلك صحَّحه جماعةٌ من الحفَّاظ كأبي حاتم ابن حبَّان، والحافظ عبد الغني المقدسي، وابن دحْيَة وغيرهم، ولم يأت من تكلَّم فيه وعلَّله بحجَّة بيِّنه».
ولعلَّه أشار بتصحيح الحافظ عبد الغني إلى ما في هذه المسألة من قوله: «وقد صحَّت الرِّواية...».

(10) أخرجه البخاري (3887) ومسلم (163).

(11) أمَّا مخالفته للنَّقل فهو محلُّ البحث: ما الَّذي تقتضيه النُّصوص في حياة الأنبياء؟ وأمَّا مخالفته للعقل فغير مسلَّم؛ لأنَّ هذا الباب لا مَدخَلَ للعقل فيه نفيًا ولا إثباتًا، بل هو بحثٌ مبنيٌّ على الخبر مجرَّدًا، ولذلك قال ابن القيِّم رحمه الله في صدر المسألة من كتاب «الرُّوح» (374): «وهي إنَّما تُتلقَّى من السَّمع فقط».



يُصلِّي بالأرواح دون الأجساد[12].

والصَّلاة في اللُّغة هي الدُّعاء[13]، وفي الشَّريعة عبارة عن القراءة مع القيام والرُّكوع والسُّجود والتَّسبيح وما قد أوجبه الله سبحانه ووظَّفه على خلقه، وقيام الأرواح وقعودها وقراءتها غير مُدْرَك ولا معقول ولا منقول، فتبارك الَّذي خصَّ محمَّدًا عبده ونبيَّه وخيرته من خلقه واصطفاه على جميع خلقه بأن أَسْرَى به وقرَّبه حتَّى كان قابَ قَوْسَيْنِ، وحباه بالكرامة العُظْمَى والمنزلة العُلْيَا، وجعله إمامًا للنَّبيِّين، ومقدَّمًا على سائر المرسلين، واختاره على جميع العالمين.

❋ ❋ ❋

فإن قال قائلٌ:

كيف صلَّى بهم في بيت المقدس ثمَّ رآهم في السَّماء كما وصَفَ: آدمُ في سماء الدُّنيا، وإبراهيمُ في السَّماء السَّابعة مسنِدٌ ظهرَه إلى البيت المعمور، وموسى في السَّادسة، وإدريسُ في الخامسة كما قد صحَّ عنه في النَّقل الصَّحيح[14]؟

فنقول، وبالله التَّوفيق:

إنَّ الَّذي أَسْرَى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثمَّ إلى السَّماء ثمَّ إلى سِدْرَة المنتهى ثمَّ كان منه قاب قوسين أو أدنى ثمَّ رجع إلى مكَّة قبل الصُّبح هو الَّذي، أَرَاهُ إيَّاهم كيف شاء، وجمعهم له أنَّى شاء، فسبحان الَّذي لا يُحاط بقدرته، ولا تنتهي عظمَتُه، ولا تُدْرَكُ صفَتُه، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير.

وفَّقنا الله وإيَّاكم لسلوك الطَّريقة المستقيمة، ومنَّ علينا وعليكم بجنَّته الكريمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلَّى الله على محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

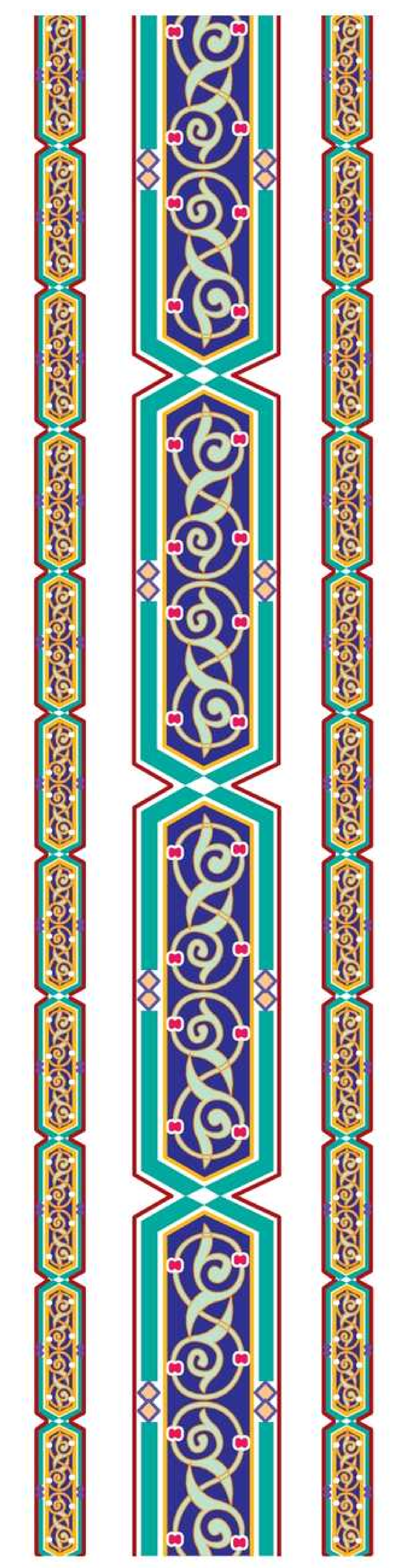
سمع من لفظي هذه المسألة: صاحبُنا أبو العبَّاس أحمد بن سلامة ابن أحمد الحراني - أحسن الله توفيقَه - والفقهاء: الإمام أبو محمَّد عبد الرَّحمن بن إبراهيم بن أحمد، وأخوه أبو بكر، وأحمد بن عبد الدَّائم بن نعمة المقدسيُّون، وسعيد بن أبي بكر بن شكر المقدسي، ومحمَّد بن عبَّاد ابن علي الحرَّاني، ومُحمَّد بن مُحمَّد[15]... وبدر ابن عمر بن خليل المقدسي، ومحمَّد ابن عبد الله بن رواد الموصلي.

كتبه عبد الغني بن عبد الواحد ابن علي المقدسي في[16]... من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وسلَّم تسليمًا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.





(12) قد ينُازع الحافظ رحمه الله في هذا، فارجع إلى ما تقدَّم في التَّوطئة.

(13) «الصِّحاح» (2402-صلا)، وأنشد له قول الأعشى:

وقابَلها الرِّيحُ في دَنِّها
وصلَّى على دَنِّها وارتَسَمْ

(14) ورد هذا في حديث الإسراء المتَّفق عليه، وقد مرَّ طرفٌ منه قريبًا.

(15) كلمة لم أتبينها.

(16) لم يتضح لي يوم التأريخ، وقد يقرأ احتمالا: العشر الأخير.

رثـاء الأحيـاء

مراد قرازة
الجزائر

عـن الحــروف إذا مـا رُمـت أرثـيهـا ❊ تغني الـدُّمـوع الَّـتي مـا زلـتُ أجريهـا

يـرثي الـكـلامُ خـصـالاً مـات صـاحبُهـا ❊ فـيرفـع الـذِّكـر والأخـــلاق يُعـليهـا

ويـنـعى دمـعـي حـيـاةً لا خَــلاق بـهـا ❊ أخــت الــوفـاة فـلا بـشـرى لـنـاعـيهـا

مِــداد عـيـنـي أجـفَّـت مـاء مُـقلتـهـا ❊ فـثـنَّـى قــولي ولــلأقــوال راجـيـهـا

هــذي الـقـوافي لـوجـه الله أُفـطِـرهـا ❊ بـين الـشّـفـاه وربّـــي الـيــوم باريـهـا

نـعي الــدّيــار، ومــن يـنـعى لـعِـترتـه ❊ غـير الـشّـقي بـأرضٍ خـاب مـن فيهـا

قــوم الحنيفة لا أعـنـي سـوى وطـني ❊ أهــل الـسَّـلام فـلا أعــدوهـا تنبيهـا

دار الـنَّـبيِّ الَّــتي قـد كـان يَعمـرهـا ❊ كـآخـر الــلّــبِن تـشـريـفـا وتـنـويـهـا

وبـاع مــن أجـلـهـا الـدُّنـيـا وأبـدَلَـهـا ❊ بـيَـوم الأخـــرى ولـم يـنـفـكَّ يُغْـلِيهـا

وحـــارب الـكـفـر في تحـقـيـق رفعتهـا ❊ ومـــات يـدعــو لـتـوحـيـد يـزكِّـيـهـا

فـهـدَّ لاتَـــا وعُـــزًّا بـعـد عِـزَّتـهـا ❊ وزاد الأخـــرى ولـم يـنـظـر لـبـانـيـهـا

وأطـفـى نـارا لـهـا ألــف فـمـا استعرت ❊ بـأرض كـسـرى وقـد أولاهـــا تأْلـيهـا

وكـسّـرت صـلـب الـرّومـان وانطمست ❊ رقـم الـكـنـائـس وانـــقـــادت لمـاحـيـهـا

وجـــرّت الـــتُّركَ لـلإسـلام مُـكـرهـةً ❊ وشـطّـت الـصّـين خـوفـا في مـبـانـيـهـا

ودانـــت الـهـند بـعـد الـسّـند مـسـلمـة ❊ لـدولـة الحــقّ بـعـد الجـهـل تـنـويـهـا

وقـام في الـبربـر الإســلامُ يـجمَعُهُم ❊ بـعـد الـفــراق وخُـلْـفٌ كـاد يُفـنـيـهـا

هـــذا الـكـمـال وربّـــى مـالـه أمـد ❊ إلاَّ انـتـقـاصـه ممّــن زاد تـسـفـيـهـا

بـعـد الــدّلال وعـــزٌّ مـا لــه شـبـه ❊ دار الــزَّمــانُ بِـــذُلٍّ غـطّـى مـاضـيـهـا

كـم قـد أُبـينَ لـنـا في الـنَّـاس مـن خَلَل ❊ حـتَّـى تـنـكَّـر بـطـنُ الأرض عـالـيـهـا

رأت عـيـوني مـا حــارت بــه أذن ❊ وكـانـت الأذنُ أَوْلى أن تُـوافـيـهـا

إنـسٌ تَـسُـبُّ مـلـيـكًـا دون سـطـوتــه ❊ سـبـحـان سـامـعـهـا إذ ظــلَّ يـرجـيـهـا

تـرمـي الـعـظـيـمَ بـجُـرم لـو تـفـقَـهــه ❊ نـفـس الـشّـقـيِّ لـغـصّـت مـن تـراقـيـهـا

وأخــرى تـغـدو لـدى الأمـــوات سائـلـة ❊ تـرجـو الـنَّـجـاة فـمـا المقـبـور يُنجيـهـا

لـو كــان يـحـسـن أن يـنـدى بمَـكـرُمَـة ❊ لـكـانـت الـنَّـفـس أولـى مَــنْ يُـنْـدِيـهـا

وأخـــرى تُـنـكـر لـلـرَّحـمـان خِـلقتـهـا ❊ وتـزعـم الـعـلـم والجـهَّـال تصـغـيهـا

وألَّـهـوا الـطَّـبـع والمخـلـوق إذ زعمـوا ❊ أنّ الـطَّـبـيـعـة أبـقـت مــن يـواتـيـهـا

وخـالـفـوا الـشَّـرع والـقـرآن إذ حكمـوا ❊ بـشـرعـة الـــرُّوم والـيـونـان ثـانـيـهـا

وغـايـة الـقـوم دنـيـا لا قَـــرار لـهـا ❊ تَـقْـري الـلَّـئـيـم وتُجْـفـي مـن يُـصـافـيـهـا

فـكـم أُفـيـض لـهـا مـن حـقّ بـارئـهـا ❊ فـقَـد أجـابـت بــردَّ الـشَّـرّ مُـطـريـهـا

فـأيـن أنـدلُـس الـقـرآن إذ نُـزعـت ❊ مـنـهـا الـعـروبـةُ والإسْــلام تـالـيـهـا

وأيــن مـا كــان في الـهـنـد مـن مَـلـك ❊ قــاد الــبــلاد بـحـكـم الله يـهـديـهـا

فـهـذي كـشـمـيـر مـن ذي الـدَّار أقْـوَمـهـا ❊ قـد أمَّـهـا الـعِـلْـجُ لـلإشـراك يـسـريـهـا

وأيــن دولـــة الأتــــراك إذ بـلـغــت ❊ أســـوارَ رومـــا وجـالـت في ضـواحـيـهـا

وأيــن مــا بـات عـنـد الـزّنـج مـنـقـرضـا ❊ مـن سـطـوة الـعُـرْب والإيـمـان داعـيـهـا

بـلاد فـارس عــاد الـكـفـر يـجـمـعُـهـا ❊ حـكـمُ الـرَّوافـض بـات الـيـوم يـجـبـيـهـا

لم يـبـق لـلـحـقّ إلاَّ فَـضْـلَـة قـسِـمَــت ❊ بـين المـلـوك وحـمـر الأهــل تـطـويـهـا

إنّــا لـفـي غـفـلـة الأمـــوات إذ بـزغـت ❊ نــارٌ تـلـظَّـى بـسِـحـر زادنـــا تـيـهـا

قـالـوا الـرَّبـيـعُ أهــلَّ بـيـوتَـكُـمْ ورأت ❊ عـيـنـي خـريـفـا وقــد جـلاَّه جـالـيـهـا

سـعـت الـرِّعـاء كـعَـنْـزٍ نـحـو مـصـرعـهـا ❊ وحــارت الـبُـكْـم مـن يـغـدو فـيَـسْـقِـيـهـا

واسـتـبـشـر الـرُّومـي فَـأْلاً حـينَ أَبْـصَـرَهـا ❊ تـسـعـى لمـا خَــطَّ لا تـعـدوه أَيْـدِيـهَـا

فَـهَــدُّوا أوطـانـهـم جـهـلا وتـعـمـيـة ❊ وأشـهـروا الـسَّـيـفَ سفَـهًـا صَـوْبَ والـيـهـا

ونــادوا بـالـكـفـر والإلـحــاد مـلـتـبـسـا ❊ ثــوبَ الـحـداثـة والإنـصـاف تـمـويـهـا

مـا سـاءهـم مـنـظـرُ الأشـلاء إذ نـثـرت ❊ كـلاً ولا سـرَّهـم مَـــنْ كــان يـنـجـيـهـا

أبـــدًا ولا فـتـحـت عـيـنٌ لـهـم فـرأت ❊ أطــلالَ دار وقـــد جـــادت بـمـن فـيـهـا

أو دمــعَ طـفـلٍ ولا أمًّـــا بـجـانـبـه ❊ تحـنـو بـرأسـه أو تـسـلـيـه آسـيـهـا

أو مـسـجـدا بـالـحـيِّ لا عـبَّـاد تَـطْـرَقُـه ❊ أجــرى عـلـيـه ريــاح الـحـرب مجـريـهـا

تـلـك المـدارسُ لـم تـشـفـع لـهـا أمَـمٌ ❊ أمَّـــت بـأمـس فـنـاهـا يــوم آتـيـهـا

وهــذه الــدُّور لـم تـأمَـن بـمـن حـفـظـت ❊ يــوم الـكـريـهـة فـانـدكَّـت بـغـاشـيـهـا

فـلـيـت شـعـري هـل أبـكـي عـلـى بـلـدي؟ ❊ أم أبـكـي ذنـبـي ولـلأوطـان راعـيـهـا؟!





المراهقة

مفهومها الشَّرعي

نجيب جلواح
الجزائر

والإنسان ـ في فترة نُموِّه ـ يَمرُّ بمراحلَ انتقالٍ حَرِجةٍ، يَحتاج فيها إلى مَن يُوجِّهه ويُرشده، وأهمُّ تلك الأطوار: هي انتقاله من مَرحلة الطُّفولة إلى سِنِّ المراهقة، فرَأَيْتُ أنْ أتحدَّث ـ في هذا المقال ـ عن هذه المرحلة المُهمَّة، ناصحًا الآباء والمُربِّين ومُوجِّهًا، ومُبيِّنًا الطَّريقةَ المُثلى الَّتي يَنبغي سُلوكها مع الأبناء، لا سيَّما في مِثل هذا السِّنِّ، كي يَصْلُحوا ويُفْلِحوا، فيُفرحوا ويُسعِدوا.

ولْنَبدأ ـ أوَّلاً ـ بتعريف المُراهقة:

خلَق الله تعالى الإنسانَ خَلْقًا من بعد خَلْق، يَمرُّ بمراحلَ مُتتابعة، وأطوارٍ مُتتالية؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ نُوحٍ] وقد عَرضَ القُرآنُ الكريمُ هذه المراحلَ، وبيَّن أنَّها تَبدأ من عالَم الأجنَّة، في أرحام الحوامل، وبُطون الأمَّهات؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ]، ثمّ يَنتقل ـ بعد الولادة، ونَفخ الرُّوح في الجسد ـ إلى عالَم الشَّهادة؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ]، فيتحوَّلُ الإنسان من حال إلى حال، إلى أنْ يخرج طفلاً، ثمَّ يَنشأ صغيرًا، ثمَّ يَحتلم، ثمَّ يصير شابًّا، ثمَّ كَهْلاً، ثمَّ شيخًا، ثمَّ هَرِمًا.

وبعد هذه النَّشأة الأولى يَصير إلى الفناء، ثمَّ ينتقل إلى النَّشأة الآخرة، فيُبعَثُ بعد الموت، فينتهي إلى عالَم الخُلود؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ][1].

(1) انظر: «تفسير ابن كثير» (5/407)، «تفسير السَّعدي» (637).



إذا نظرنا في أصل هذه الكلمة نجدها ترجع إلى فعل: رَهِقَ يَرْهَقُ رَهَقًا، ومعناه: سَفِهَ وطَغَى؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [سورة الجن]، أي: زادوهم سَفَهًا وطُغْيانًا[2].

ورَهِقَه المكروه: غَشِيَه؛ قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة عبس]، أي: يَغشاها سَوادٌ، وتَعلوها ظُلْمة، وهي وُجوه الكَفَرة[3]؛ ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: 27]، أي: يَغشى أصحابَ النَّارِ هَوانٌ، ويَعْتريها خِزْيٌ[4].

هذا وقد ورد في القُرآن معانٍ أخرى لفعل (رَهِقَ) بمشتقَّاته، وأمَّا السُّنَّة: فقد وَرد في حديث تَميم الدَّاري رضي الله عنه -في قصَّة الدَّجال- أنَّ رَهْطًا من بني عمِّه رَكبوا البحرَ، فألجأتهم الرِّيح إلى جزيرة، فلاقوا فيها الجسَّاسة فقالت لهم: «**ولكنْ هَذا الدَّيْرُ قَدْ رَهِقْتُمُوهُ، فَفِيهِ مَنْ هُوَ إلى خَبَرِكُمْ بالأَشْوَاقِ**»[5]، تعني: الدَّجال، و«رَهِقْتُمُوهُ»: أي قارَبتموه، ودَنوتم منه.

وقد ذَكر أصحاب «المعاجم» و«الغريب» معاني أُخرى للرَّهَق، نذكر بعضها:

الرَّهَقُ كالعَجَلة والجَهْل، وخِفَّة العَقل، والعَرْبَدَة.

وراهَقَ الغُلامُ: قَارَبَ الحُلُم والبُلوغ[6].

والمُراهِق: الغُلام الَّذي دَانَى الحُلُم وقاربه[7].

وهذا المعنى الأخير: هو المُستعمَل في كُتب الفقه على المذاهب الأربعة[8]، أي: المرحلة الَّتي هي قُرب البُلوغ، والسَّابقة له، بخلاف ما عليه علم النَّفس المعاصر، الَّذي جعل «المُراهقة» تلي البُلوغ، وتكون بعده.

فهم خاطىء للمُراهقة

لقد غلب على ظنِّ كثير من النَّاس أنَّ مَرحلةَ «المُراهقة» أزمةٌ ومُعضلةٌ، وفَترةُ جُنونٍ، فهي تعني -عندهم-: الطَّيْش والانحراف والانحلال، واعتبرها آخرون مَرضًا نفسيًّا يَستدعي علاجًا طبيًّا، حتَّى وصل الأمر ببعض الآباء إلى الاقتناع بأنَّ ابنَه إنْ ساءت أخلاقُه، أو فسَدت طباعُه، فسبب ذلك كلِّه: هو المراهقة، فيُبالغ في الاعتذار له، وإنْ نُمي إليه أنَّ ولدَه وقع في مُنكر، أو طُلب منه تقويم اعوجاجه، أجاب بكُلِّ سَذاجة قائلاً: إنَّه مُراهق، وهذا يعني: أنَّ سِنَّ المراهقة أصبح -عند هؤلاء القوم-: مَرحلةً لارتكاب الجرائم، وأضحى عُذْرًا للانحراف والطَّيْش، وهذا المفهوم المعكوس جعل «المراهقة» مُرتبطةً بحُكم أخلاقيٍّ مُعيَّن، لذا تجد بعضَهم إنْ أراد أن يُعبِّر عن سَخطه من تَصرُّفات شخصٍ ما، صرَّح قائلاً: هذا مُراهق، وكلمة «مُراهق» -في الحقيقة-: ليست سُبَّةً، ولا تَعييرًا، ولا تنابُزًا بلقبٍ يُنبىء عن تَصرُّف مَشين.

سبب هذا الفهم المعكوس

وسبب انتشار هذا المفهوم الخاطىء لـ «المراهقة» عدَّة عوامل، منها -وعلى رأسها-: قِلَّة المنتوج العلمي في هذا الميدان بما يتَّفق مع تعاليم الإسلام، الأمر الَّذي دفع بعض المسلمين إلى أنْ يَأخذوا العُلوم الغَرْبيَّة دُون تمحيص؛ كعلم النَّفس الَّذي أصبحت كُتُبه تُترجم إلى اللُّغة العربيَّة، بل وتُدرَّس نُصوصُه بلا نَقْد، مع جهل أكثر هؤلاء بما تحويه من مُخالفات للشَّرع، وقد فات بعضَهم أنَّ مُؤلِّفي هذه الكُتُب إنَّما بَنَوا نتائجهم التي توصَّلوا إليها على تجاربَ أَجْرَوْها على أبناء جنسهم، الَّذين يَعيشون في مُجتمعات مُنحرفة فاسدة، وغارقة في الشَّهوات، فلا يجوز -إذًا- قياسُ المُراهق المسلم على هؤلاء القوم، بل الأولى والأجْدر أنْ يُربَطوا بسيرة شباب السَّلف الصَّالح، من الصَّحابة الصِّغار رضي الله عنهم ومَن تبعهم بإحسان، الَّذين كانوا في مثل هذا السِّنِّ، ولم تؤثِّر فيهم هذه الأوهام، بل كانوا مَضْرب الأمثال في العِلم والعبادة والجهاد في سبيل الله -على صِغرهم- أمثال عبد الله ابن عبَّاس وعبدِ الله بنِ عُمرَ وجابرِ ابن عبدِ الله وأنس بن مالك وزيد بن ثابت ومُعاذ بن جبل، وغيرُهم كثير رضي الله عنهم، فهذا عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما -مثلاً- يقول عن نفسه: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم وأنا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ

(2) انظر: «تفسير الطَّبري» (325/23)، «تفسير السَّعدي» (890).

(3) انظر: «تفسير ابن كثير» (327/8)، «أضواء البيان» (505/7).

(4) انظر: «فتح القدير» (503/2)، «تفسير القُرطبي» (332/8).

(5) أخرجه أحمد (27101)، وصحَّحه مُحقِّقو «المسند» (59/45).

(6) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (899).

(7) انظر: «مقاييس اللُّغة» للرَّازي (451/2)، «النِّهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (283/2).

(8) انظر: «المبسوط» للسَّرخسي (243/1)، «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (110/1)، «المجموع» للنَّووي (296/6)، «المغني» لابن قُدامة (352/4).

المُحْكَمَ»[9] أي: حَفظَ المُفصَّل، وهو مِن سُورة الحُجُرات إلى آخر القُرآن، وهو ابنُ عشر سنوات[10]، بل كان عُمَرُ ابنُ الخطَّاب رضي الله عنه يُجلسه مع أشياخ بَدْر من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم وهو فَتًى، فيفتح الله عليه - من التَّفسير - بما لم يُسبق إليه[11]؛ وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - أيضًا - يقول: «عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَلَمْ أَحْتَلِمْ، فَلَمْ يَقْبَلْنِي، ثُمَّ عُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَبِلَنِي»[12].

وهذا ما يعني أنَّ شبابَ السَّلف كانوا يُنَشَّأون - منذ صغرهم - على حُبِّ العلم والجهاد ونُصرة الدِّين، حتَّى أَضْحَوْا مِن فُقهاء أصحاب رسول الله ﷺ ومُحدِّثيهم وأبطالهم.

التَّربية الصَّحيحة

إنَّ التَّربيةَ الصَّحيحةَ المبنيَّةَ على أساسٍ شرعيٍّ وعلميٍّ، هي الكفيلة بتوجيه المراهق، وتهيئة الجوِّ المناسب له، كي يَنشأ نَشأةً مُستقيمةً، عفيفَ النَّفس، طاهرَ القلب، فيُصبح فردًا صالحًا ومُصلحًا.

وينبغي للوالدين أنْ يَحرصا على تربية الطِّفل وغَرْس مبادئ الخير فيه مُبكِّرًا مُنذ نُعومة أظفاره، كي يَنتفع بذلك حال الكِبَر، فـ«مَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ»، و«التَّربية في الصِّغَر كالنَّقش على الحَجَر»، قال ابنُ أبي زيد القيروانيّ في مُقدِّمة «الرِّسالة»: «تعليم ذلك للوِلْدان، كما تُعلِّمهم حُروف القُرآن؛ ليسبقَ إلى قلوبهم - مِن فَهْم دين الله وشرائعه - ما تُرْجَى لهم بركتُه، وتُحمد لهم عاقبتُه».

تعليمُ المُراهقِ أحكامَ البُلوغ

على الآباء تَعليمُ أبنائهم أحكامَ البُلوغ، وإخبارهم بأنَّهم سينتقلون من مَرحلة الطُّفولة إلى مَرحلة أُخرى جديدة، وسيُصبحون مَسؤولين عن تَصرُّفاتهم، مُكلَّفين بأحكام الشَّرع ومُخاطَبينَ بنُصوصه، وإعلامهم بأنَّهم لم يعودوا أولئك الأطفال الَّذين لا يَعرفون سوى اللَّهو واللَّعب، بل أصبح لهم دَورٌ في الحياة، فإذا كَبروا عرفوا ما يَحلُّ لهم وما يَحْرُم عليهم، فينشأون مُتحلِّين بالعفَّة والخِلال الرَّفيعة، مُجْتنبين الفواحشَ والأخلاقَ الوضيعة.

ولقد سبق رسولُ الله ﷺ جميع المربِّين، وعالج مَرحلة المراهقة، وبيَّن كيف يُتعامَل معها، فقال ﷺ: «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ**»[13].

وإنَّما أَمَر ﷺ بأنْ يُفرَّق بينهم في المضاجع إذا بلغوا عشرًا؛ لأنَّ مَيْل الذَّكر إلى الأنثى والعكس يَبدأ عند الفتى والبنت في مثْل هذا السِّنِّ، والامتثال لهذا التَّوجيه النَّبويِّ، والعمل بهذا الحُكم الشَّرعيِّ: كفيلٌ بإبعاد هؤلاء المراهقين والمراهقات عن المُهيِّجات الجنسيَّة، الَّتي قد تُوقع أفراد الأسرة الواحدة في فاحشة الزِّنا، وأيُّ زنا؟! إنَّه زِنا المحارم، الَّذي أصبح - للأسف - مُنتشرًا، وقد أثبتت التَّجارب أنَّ مُعظَم هذه الحالات المُخزية كانت بسبب النَّوم المُختَلط بين الإخوة والأخوات، نسأل الله السَّلامة.

وقاية المراهق مِن المُغريات

مِن أعظم الأخطار الَّتي أصبحت تُهدِّد أخلاقَ المراهق وتَديُّنَه: التَّقدُّم المُدهش والمُذهل لوسائل الاتِّصال الَّتي بات مِن الصَّعب جدًّا - إنْ لم نَقل من المستحيل - وَضْعُ أيِّ حَدٍّ لها أو رقابةٍ عليها، لحفظه من أخطارها.

ولا أَظُنُّ بأنَّ هُناك علاجًا مُجْديًا لهذه الظَّاهرة المُستفحلة، ولا عاصمًا من الانحراف أحسنَ من تَعليم هذا المراهقِ العقيدةَ الصَّحيحةَ، الَّتي عليه أنْ يُؤمن بها، ويَعيش من أجلها، ويدعو إليها، ويُضحِّيَ في سبيلها، فيرقى - بذلك - إلى درجة الإحسان، فيُوقن بأنَّ الله مُطَّلعٌ عليه، يَرى مكانَه، ويسمع كلامَه، فتقوى في قلبه مُراقبة ربِّه في السِّرِّ والعلانية، ويخشاه حيثُما كان ووُجِد، فيَستحيي منه أنْ يَراه على مَعصية، وهذا أقوى حاجزٍ وأمتن حصنٍ بينه وبين هذه المغريات، الَّتي تُفسد الكِبار قبل الصِّغار.

فإنْ لم يَرْقَ هذا المراهق إلى هذا المستوى من الإيمان والإحسان، فلا يجوز - حينها - لوالديه أنْ يَتركا له الحَبْل على الغارب، بل يَجب عليهما أنْ يقطعا عنه كُلَّ وسائل الفَساد، ويُزيلاها من

(9) أخرجه البخاري (5035).
(10) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (84/9).
(11) انظر: «صحيح البخاري» (4294).
(12) أخرجه ابن حبَّان (4727)، وهو صحيح، انظر: «إرواء الغليل» للألباني (1186).
(13) أخرجه أبو داود (495)، وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألباني (466).

البيـت، ولكـن إنْ كان ولابُـدَّ، فـلا يجوز لهما أنْ يُمكِّناه من مُشاهدة الفَضائيَّات، ولا تَصفُّح الشَّبكة العنكبوتيَّة - الإنترنت - إلاَّ برقابتهما وتحت إشـرافهما، ويُنصَح بوَضْع جهاز الحاسوب في مكان آهل عامٍّ، يرتـاده كُلُّ مَـنْ في البيت، حتَّـى لا ينفرد المراهق بمشـاهدة ما لا يجوز مُشاهدته، علـى أنْ تكون هذه الرَّقابـةُ بطريقة غير مُباشرة، وبأسلوبٍ فيه حكمة.

وأفضـلُ عـلاجٍ للنَّجـاة مـن هـذه المُغريـات، وتحصـين نُفوس الشَّـباب المراهـق من اقـتراف الفواحش والوقوع في المحرَّمـات، يكمـن في مُبـادرة الآباء بتزويج أبنائهـم بعد بلوغهم، إعانةً لهم علـى امتثـالِ نصيـحة رسـول الله ﷺ لهـم، القائـل: «**يـا مَعْشَـرَ الشَّبَـاب مَن اسْتَطَـاعَ مِنْكُـمُ البَـاءَةَ فَلْيَتَـزَوَّجْ؛ فَإِنَّـهُ أَغَضُّ لِلبَصَـرِ، وأَحْصَـنُ لِلفَـرْجِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِـعْ فَعَلَيْـهِ بِالصَّـوْمِ؛ فَإِنَّـهُ لَـهُ وِجَاءٌ**»[14].

الطَّريقة المُثلى لإصلاح المُراهق

هذه جُمْلَةٌ من النَّصائح والإرشادات، نَتوجَّه بها إلى الآباء والأُمَّهات - خاصَّـةً - وإلى مَجمـوع المُربِّـين - عُمومًـا - تتعلَّـق بكيفيَّة التَّعامل مع المراهق، وبيان سُـبُل إصـلاحه، وتهذيب أخلاقه، وإنقاذه من الخَطـر المحيط به، وإبعاده من الفسـاد والمفسدين، فنقول:

أيُّها الأب الكـريم! ويـا أيَّتهـا الأمُّ الرَّحيمة! ويا أيُّها المربِّي الحَكيم!

■ **أوَّلاً** - وقبـل كُلِّ شـيء -: يجـب عليكم جميعًا أنْ تَعلمـوا جيِّدًا، وتُدركوا إدراكًا تامًّا، بـأنَّ الهداية من الله تعالى وحده، يهدي مَن يشاء، ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، فمهما اجْتَهَدتُّم في تَنْشِـئة ولدكم تَنْشئةً صـحيحةً، وحَرَصـتم على تربيته تربيةً مُسـتقيمةً، فليس من الضَّروري أنْ يَنشأ صالحًا كما تُريدون وتتمنَّون:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ
تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ

ولا يَحـقُّ لأحد أنْ يَتسـرَّع في الحُكم على سُـوء تربيـة بعض النَّاس لأبنائهم إلاَّ بعـد معرفة حقيقـة أمرهم، فهذا نبـيُّ الله نـوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ - مثـلاً - دعا قومه ليلاً ونهارًا، سـرًّا وجهارًا، فما اسـتطاع أنْ يَهدي ولده، الَّذي هو من أَقْرَب النَّاس إليـه، بل كان ابنُه من المُغْرَقِين مع القوم الكافريـن، ولا نشـكُّ - بُرهـةً - أنَّ نوحًـا عَلَيْهِ السَّلَامُ قصَّـر في دَعـوة ابنـه، أو لم يَقُم بواجب التَّربية الحسنة تجاه فلذة كبده، أبدًا وحاشـاه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنَّها مَشيئةُ الله تعـالى النَّافذة، الفعَّال لمـا يُريد، القائل في مُحكـم التَّنزيـل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ].

وعليـه، فلا تَغفُلوا عـن كثرة الدُّعاء لولدكم، ولا تنسَـوا أنَّ دُعاء الوالد لولده مُسـتجاب[15]، فتَحـرَّوا أوقـاتَ الإجابة لسُـؤال الله له الهداية والخيـرَ والتَّوفيقَ والسَّـدادَ والصَّـلاح، ولْيتوجَّه كُلٌّ منكم إلى ربِّـه بقلب خاشـع، ولْيَسْـأَلْه قائلاً: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: 15]، أي: وأَصْلِـح لي أُمـوري في ذُرِّيَّتي، الَّذين وَهَبْتَهـم لي، بأنْ تَجعلهم هُـداةً للإيمان بك، واتِّباع مَرضـاتك، والعمل بطاعتك، واجعلِ الصَّـلاحَ سـاريًا فيهم، راسخًا في نفوسهم[16].

■ عليكـم الاهتمـام بالمراهـق؛ لحمايتـه من أيِّ انزلاق، أو انتكاسـة في الأخـلاق، أو مُيوعـة أو انحـلال، وَلْيَكن ذلـك بفهْـم طبيعـة تصـرُّفاته - أوَّلاً -؛ ليسـهُل عليكم التَّعامُل معه برفْق ورَحمة وحكمة وصَـبْر، واجتنبوا العتابَ الكثيرَ، والتَّعنيفَ المُتكرِّر؛ فإنَّ الإفراطَ في لَومه، والمبالغـةَ في تأنيبـه وانتقاده قـد لا تأتي بالثَّمـرة المرجُوَّة دائمًا، بل رُبَّما قد تزيد الأمور تَعقيدًا وسوءًا.

■ عليكم أنْ تَقتربوا منه، وأنْ تَدْعُوه بالحكمة والموعظة الحسـنة، توسَّطوا في التَّعامل معه - دُون إفراطٍ أو تفريط - فلا تَقْسُـوا عليه كثيرًا إلى درجة إرهابه، ولا تُبالغـوا في اللِّين معـه إلى درجة تمييعه، و«الحسنةُ بين السَّيِّئتين»، ولقد قيل: «لاَ تَكُنْ يَابِسًا فَتُكْسَر، وَلاَ لَيِّنًا فَتُعْصَر».

■ اغتنموا فُرصـة مَيله إلى التَّديُّن، وشـجِّعوه على ذلك؛ حتَّى يُصبـح شـابًّا صالحًا مُستقيمًا، ومن هنا نُدرك حكمةَ الله تعالى في التَّشـريع، حـين جعل هذا السِّـنَّ تمهيدًا للتَّكليـف؛ حيـث يَشعر المراهق أنَّـه دخل عالَم الرِّجال، ولم يَعُد ذاك الطِّفل الصَّغير، كما كان من قَبل.

■ **ليـس هنـاك أفضـلُ - في مجـال التَّربيـة - مـن القُـدوة الحسـنة، فكونوا**

(14) أخرجه البخاري (5066)، ومسلم (1400).

(15) لما روى أبو داود (1536) وابن ماجه (3862) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ، لا شَكَّ فيهنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ**»، وهو (حسن) انظر: «السِّلسلة الصَّحيحة» للألباني (596).

(16) انظر: «جامع البيان» للطَّبري (141/21)، و«روح المعاني» للألوسي (474/8).

أوَّلَ المُمتثلين لما تَدْعونه إليه، فلا تأمُروه بالصِّدق. مثلاً. وأنتم من الكاذبين، ولا تحثُّوه على الصَّدقة وأنتم من البُخلاء المُمسكين، وتذكَّروا قولَ نبيِّ اللّه شُعَيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [سُورَةُ هُودٍ].

■ تَحبَّبوا إليه بالهدايا، والكلمة الطَّيِّبة، والابتسامة الصَّادقة، امْسحوا على رأسه، واضربوا على كتفه، واقْتربوا منه، فإذا أحبَّكم تأثَّر بكم، وبالتَّالي قلَّدكم وسار على نهجكم، واقتفى أثرَكم، على أنْ تكونوا أنتم على استقامة وخُلُقٍ وأدب.

■ اعْلَموا أنَّ أشدَّ ما يُؤثِّر في أخلاق المُراهق وسيرته هي الصُّحْبة، لذا عليكم أنْ تُرغِّبوه في أنْ يختار أصحابه، ويَحْرِص على جُلساء الخير ليصْلُح أمْرُه، وينجح في حياته، ويَسعد في الدَّارين، ومُرُوه بأن يَبتعد عن رُفقاء السُّوء؛ كي لا يَفسُد، فيَخسر ويَشقى؛ لأنَّ «الصَّاحبَ ساحِبٌ»، لاسيَّما في هذه المرحلة، فكثيرًا ما يُحاوِل المراهق تجريب بعض الممارسات. الَّتي يَستقيها مِن غيره. وتكون آثارُها عليه سَيِّئةً، ولقد قيل:

عن المَرْءِ لاَ تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وقال آخرُ:

كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ الأَنَامِ بِمَعْزَلٍ
إِنَّ الكَثِيرَ مِنَ الوَرَى لاَ يُصْحَبُ
وَاحْذَرْ مُصَاحَبَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ
يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الأَجْرَبُ

■ كما يَتعيَّن عليكم. أيضًا. مُراقبةُ ابنتكم المراهقة، حَذِّروها مِن رَبْط علاقات مَشْبوهة مع غيرها، حتَّى ولو كانت بواسطة ما يُسمَّى اليوم بـ: «مَواقع التَّواصُل الاجتماعي»، كـ «الفايسبوك» و«التويتر» ونحوهما؛ فإنَّ نتائجَها مَعلومةٌ، وعواقبَها وخيمةٌ، ولا يَخفى عليكم بأنَّ لهذا الأمر أسبابًا ودوافعَ، ولعلَّ منها: ما تحويه بُيوتُ النَّاس اليومَ مِن وسائل الفساد، كالفضائيَّات الَّتي تَعرِض الأفلامَ الخليعةَ، والمُسلسلات السَّاقطةَ، والأغانيَ الماجنةَ، ممَّا يَدفع بالمراهق والمراهقة إلى عَقْد هذه العَلاقات المحرَّمة.

■ امْلأوا أوقاتَ المراهق بما يَنفعه ويُفيده مِن أُمور الدِّين والدُّنيا، ولا تَدَعوا وقت فراغه للشَّيطان، فيملأه له باللَّهو واللَّعب، وقضاء الشَّهوات في الحرام.

■ لا تُفيضوا عليه المالَ، فهو سلاح ذُو حدَّين، إذْ يُخشى عليه أنْ يَستعمله فيما يَضُرُّ ولا يَنفع؛ كشراء الدُّخان، أو ما هو أخطر مِن ذلك وأضرُّ.

■ خَصِّصوا للبيت مَكتبة. ولو كانتْ صغيرةً. وزَوِّدوها بما يَنفع مِن الكُتب الشَّرعيَّة والعلميَّة، وازْرَعوا في ابنكم حُبَّ المطالعة، وكلِّفوه بالمدارسة والبحث، وهو ما يُنمِّي قُدُراته العَقليَّةَ والفكريَّةَ ويُقوِّيها، فيجد نفسَه. بذلك. مَشدُودًا إلى البيت، فيقضي أغلب أوقاته فيه، بَعيدًا عن مَخاطر الشَّارع ومُنكراته.

■ اتْرُكوا له فُسحةً، واسْمحوا له بأنْ يُروِّح عن نفسه ويُسليها بما يُباح مِن وسائل التَّرفيه، واعلموا أنَّكم إذا مَنعتموه مِن كُلِّ ذلك، وأغلقتم عليه كُلَّ الأبواب، فسيضطرُّ للبحث عن وسائل أخرى.

■ اصْبِروا على بعض أسئلته المُحرجة، وحاولوا الإجابة عنها وبحكمة، افْسَحوا له مجالاً للمُناقشة، حاوِروه في هُدوء، اسْعَوا لإقناعه حين تَنهونه عن مُنكر، وبَيِّنوا له أضرارَ ما تمنعونه منه، ممَّا يُحبُّ ويَشتهي.

■ لا تنسَوْا الثَّناء عليه إذا أحسن، وشجِّعوه على ما يَبْذُل مِن مَجهود، وما يَفعله مِن خير، وكافئوه بالجوائز والهدايا؛ ليزداد اجتهادًا ومُثابرةً.

■ اجْتنبوا كَثْرة الصُّراخ، ورَفْع الصَّوت في وجهه، فهو ممَّا يُذهب هَيبَتَكم، واعْتَبروا بنصيحة لُقمانٍ الحكيم لابنه. وهو يعظه. إذْ قال له: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [سُورَةُ لُقۡمَانَ].

■ لا تَجعلوا منه خَصْمًا لكم، ولا تَتَّخذوه عَدُوًّا لَدودًا، وإنْ أخطأ وأساء، بل اقتربوا منه إذا أردتُّم أنْ تُنقذوه ممَّا هو واقعٌ فيه مِن الرَّذائل والنَّقائص، واعلموا أنَّه كُلَّما كَبِر قلَّت سيطرتُكم عليه، فلا تَقْطعوا الشَّعرة الَّتي بينكم وبينه، وإلاَّ وَجد. في ذلك. حُرِّيَّةً لفعل كُلِّ ما تمليه عليه النَّفسُ الأمَّارة بالسُّوء.

❋❋❋

نسألُ اللّه تعالى أنْ يُصْلح شبابَ المسلمين، ويَهديهم لما فيه خيرُهم وسعادتُهم في الدُّنيا والآخرة، واللّه المُوفِّق، وهو الهادي إلى سَواء السَّبيل، والحمد للّه ربِّ العالمين.

❋❋❋



أهمية معرفة الفروق بين الأشياء

حسن أيت علجت
الالجزائر

توطئة

لقد أَولَى العلماءُ المحقِّقون عنايةً فائقةً مسألة الفُروقِ بين الأشياء؛ سيَّما ما كان مُتَعلِّقًا بالألفاظ والمعاني، فصنَّفوا كُتبًا كثيرةً في الفروق متعلِّقةً بعلوم شتَّى: ففي اللُّغة صنَّف أبو هلال العسكري (ت بعد 400 هـ) كتاب «الفُروق في اللُّغة»، وفي الفقه والأصول صنَّف شهاب الدِّين القرافي (ت 684 هـ) كتاب «أنوار البُروق في أَنْوَاء الفُروق»، وفي التَّوحيد صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ) كتاب «الفُرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان»، وكتاب «الفرقان بين الحقِّ والباطل»، وفي الأخلاق والسُّلوك صنَّف الحافظ ابن رجب (ت 795 هـ) كتاب «الفَرْق بن النَّصيحة والتَّعيير»، إلى أمثالها من الكُتب في هذا الباب العظيم.

وفي هذا الصَّدد عَقَدَ الإمام ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ الله فَصلاً طَويلاً في كتابه «الرُّوح» (ص 260) لِذِكْرِ الفُروق بَيْنَ الأَشياءِ، قال في أَوَّله:

«وهذا بابٌ من الفُروقِ مُطَوَّلٌ، ولعلَّ ـ إنْ ساعَدَ القَدَر ـ أنْ نُفْرِدَ فيه كتابًا كبيرًا، وإنَّما نَبَّهْنَا بِمَا ذَكَرنَا على أُصُوله، واللَّبيبُ يَكْتَفي بِبَعْضِ ذلك».

ثُمَّ خَتَمَ هَذا الفَصلَ بقَولِه: «ولا تَسْتَطِلْ هذا الفَصْلَ، فَلَعَلَّهُ مِنْ أَنفَعِ فُصُولِ الكِتَابِ، والحَاجَةُ إِلَيه شَدِيدَةٌ».

تأصيل مسألة الفروق

ومَعرفَـةُ الفُـروق بَـيْنَ الأَشـيَـاء من الميـزَان الَّذي أَنزَلَه الله تعالى، ذلك بأنَّ الله - جَـلَّ وعـلا - أَنزَلَ علـى نبيِّه محمَّد ﷺ القرآن العظيمَ، وأَنْزَلَ معَه الميزَانَ، وجَعلَـهُ قَرِينَـهُ ووزيـرَهُ، فقـال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشورى]، وقال أيضًـا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : 57]، وقـال تعـالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن]، فَهَـذَا الكتابُ، ثُـمَّ قَالَ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن] [1].

«والميـزَانُ هـو: الجَمْـعُ بين المسـائل المتماثلة في مصـالحها أو مضارِّها بحُكْم واحـد، والتَّفريقُ بين المُتَبَاينَات المُختَلفَاتِ بأحـكَام مُختلفَـة، مُنَاسِـبَة لِـكُلِّ واحدَةٍ منها»[2].

فالميزان الصَّحيح - إذًا - يَنْبَني على معرفـة الفـروق بين المسـائل، ليتسـنَّى للمَـرْء التَّفريقُ بَين المُختلفـات، والجَمعُ بين المُتَماثلات.

لهذا قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمـا يُعرَفُ به تماثـلُ المتماثلات مـن الصِّـفات والمقاديـر هـو مـن الميـزان، وكذلـك ما يُعرف بـه اختلاف المُختلفات»[3].

مكانة الفروق في دين الله عَزَّ وَجَلَّ

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والدِّيـنُ كُلُّـه فَـرْقٌ، وكتـابُ الله

(1) انظر: «إعلام الموقِّعين» للإمام ابن القيِّم (1/133).

(2) قاله العلاَّمة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «القواعد والأصول الجامعة» (ص 4).

(3) «مجموع الفتاوى» (9/240).

فرقـانٌ، «وَمُحَمَّدٌ فَـرْقٌ بَـيْنَ النَّاس»[4]، ومَـن اتَّقى الله جَعَلَ لَهُ فُرقَانًا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : 29]، وسُـمِّي يومُ بَدْرٍ يَـومَ الفُرقان[5]؛ لأَنَّه فَرَّقَ بَيْنَ أولياء الله وأعدائه...

فالهُدَى كُلُّه فُرقَانٌ، والضَّـلالُ أَصلُه الجَمْعُ، كَمَا جَمَعَ المُشركون:

بَـيْنَ عبَـادَة الله وعبَـادَة الأَوثَـان، ومَحَبَّته ومَحَبَّة الأوثَان.

وبَيْنَ ما يُحِبُّه ويَرضَاهُ، وبَيْنَ ما قَدَّرَه وقَضَـاه، فَجَعلوا الأَمرَ واحدًا، واستدَلُّوا بقَضائه وقَدَره على مَحَبَّته ورضَاه[6].

وجَمَعُـوا بَيْنَ الرِّبَـا والبَيْع، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة : 275].

وجَمَعُـوا بينَ المذَكَّـى والميتة، وقالوا: كيـف نـأكلُ مـا قتَلْنَـا، ولا نَأكُلُ مـا قتلَ الله؟!

وجمع المنسَـلخون عن الشَّـرائع بين الحلال والحـرام، فقالـوا: هذه المـرأةُ خلَقَهـا الله، وهذه خلقها، وهذا الحيوَان خلَقَـه، وهـذا خلَقَـه؛ فكيفَ يُحِـلُّ هذا، ويُحَرِّمُ هذا؟!

وجَمَعوا بين أوليَـاءِ الرَّحمن وأَوليَاء الشَّيطان.

وجاءت طائفَـةُ الاتِّحَاديَّة[7]، فَطَمُّوا

(4) جزء من حديث رواه البخاري (7281) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(5) إشَارَةً إلى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال : 41].

(6) كما قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 148]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل : 35]، وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف : 20].

(7) أي: القائلون بوحدة الوجود من الصُّوفيَّة، الذين لا يُفَرِّقون بين الخالق والمخلوق، ويجعلونهما شيئًا واحدًا.

الوادي علـى القَـريِّ[8]، وجَمَعُوا الكُلَّ في ذَات واحدَة وقالـوا: هي الله الَّذي لا إله إلاَّ هو!».

إلى أَنْ قال: «والتَّشَابُهُ يَقَعُ في الأَقوال والأَعمـال والأَحوال والأَمـوال والرِّجَال، وإنَّما أُتيَ أكثَرُ أَهلِ العلم منَ المُتَشَابِهَات في ذلك كُلِّه»[9].

الجهل بالفروق
سبب اشتباه الحقِّ بالباطل

إنَّ سَببَ اشـتبَاه الحَقِّ بالباطل عند كثير من النَّاس، وعـدمَ التَّمييز بينهما، يعودُ إلى الجهل بهذا الباب، ألا وهو باب الفُـروق بين الأشـياء، ذلك بأَنَّـه ما مِنْ حقٍّ وباطلٍ إلاَّ وبَيْنَهُما قَدْرٌ مُشْـتَرَكٌ، مع وُجود خَصَـائصَ لكُلٍّ من الحقِّ والباطل تُفَرِّقُ، وتُميِّزُ بَيْنَهُما.

فأَصحـاب البَصَـر النَّافـذ، والعلم النَّافع يَأْخُذون خَصـائصَ الحَقِّ ويُلْغُون القَـدرَ المشـتَرَكَ بينـه وبـين الباطـل، فيَحكُمـون بهـذه الخَصـائص المميِّـزة للحـقِّ على القَـدْر المشـتَرك بيْنَـه وبَيْنَ الباطل، ويَفْصلونَه بذلك عنه.

أمَّـا أصـحَاب العُقُـول القَاصـرة والفُهُوم الخَاسرة؛ فإنَّهم يأخُذُون القَدرَ المُشْـتَرَكَ بيْنَ الحَقِّ والباطل، ويَحكُمُون بـه علـى الخَصَـائص المُمَيِّزة للحـقِّ، ويُلغـون بذلك الخصـائصَ الفارقةَ بين الحقِّ والباطل.

وشـرٌّ من هؤلاء مكانا وأضـلُّ سبيلاً

(8) قال الميداني في «مجمع الأمثال» (1/159): «جَرَى الْوَادي فَطَمَّ عَلَى القَرِيِّ، أي: جرى سيلُ الوادي، فطَمَّ أي: دَفَن.
والقَرِيُّ: مَجْرَى الماء في الروضة، والجمع أَقْرِيَة وقُرْيَان.
أي: أتى على القَرِيِّ يعني أَهلَكَهُ بأَنْ دَفَنَهُ.
يُضرَبُ عندَ تجاوز الشَّرِّ حَدَّه» اهـ باختصار.

(9) «الرُّوح» (ص 260).

الَّذيـن يَعمـدُون إلى خصـائص الحقِّ، فيُعطُونهـا للباطـل، وإلى خصـائص الباطل فيُعطونها للحقِّ.

وفي هـذا يقـول الإمـام ابـن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّـه ما مِنْ حَقٍّ وباطل إلاَّ وبَيْنَهما اشـتراكٌ مِنْ بعض الوُجوه. ولو في أصل الوُجُود، أو في أصلِ الإخبَار، أو في مُجَرَّد المَعلُوميَّة؛ بأنْ يكونَ هذا معلومًا مذكورًا، وهذا معلومًا مذكورًا.. ولكلِّ واحد منهُما خصائصُ يتميَّزُ بها عن الآخَر:

فَأَحْظَـى النَّاسِ بالحَقِّ وأَسـعَدُهُم بـه: الَّذي يقعُ على الخصـائص المُمَيِّزَة الفَارِقَة، ويُلْغِي القدرَ المشـتَرَكَ، فيحكُمُ بالقـدر الفـارق علـى القدر المشـتَرك، ويَفْصِلُهُ به.

وأَبعَدُهُـمْ عـن الحـقِّ والهُـدَى: مَنْ عَكَسَ هـذا السَّـيْرَ، وسَـلَكَ ضـدَّ هذه الطَّريق، فألغـى الخصـائصَ الفارِقَة، وأَخَـذَ القَـدرَ المشـتركَ، وحَكَمَ بِهِ على القَدْرِ الفَارِق.

وأَضَـلُّ منه: مَنْ أَخَذَ خصَائصَ كُلٍّ مِنَ النَّوعَيْنِ، فَأَعطَاهَا للنَّوعِ الآخَر.

فهـذان طريقَا أَهلِ الضَّـلالة اللَّتان يَرجِـعُ إليهمـا جميـعُ شُـعَبِ ضَـلالِهِم وبَاطِلِهِم»[10].

وهذا رسمٌ توضيحيٌّ يُبيِّن هذه المسألة:



ومِـنْ بَابَتِه قولُ الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في مَطلَعِ رسالته الموسومة بـ «الفَرق بين النَّصيحةِ والتَّعيير»:

«فهذه كلماتٌ مُختَصَرَةٌ جامِعَةٌ في الفَرق بين النَّصـيحة والتَّعيـير، فإنَّهما يَشتَرِكَان في أَنَّ كُلاًّ منهُما: ذِكْرُ الإنسانِ بِمَا يَكْرَهُ ذِكْرَه، وقد يشْتَبِهُ الفَرْقُ بيْنَهُمَا عنـد كثـيرٍ مِـن النَّـاس، واللهُ الموفِّـقُ للصَّواب».

فذكَرَ القدرَ المشـترك بين النَّصيحة المحمـودة، والتَّعيـير المذموم وهـو ذِكْرُ الإنسـان بما يكْـرَه، ثُمَّ ذَكَرَ خَصَـائصَ النَّصـيحة وخصـائص التَّعيير الفارقة بينهما، فقال:

«اعلـم أَنَّ ذِكْـرَ الإنسـانِ بِمَـا يَكْرَهُ مُحَرَّمٌ إذا كان المقصودُ منه مُجَرَّدَ الذَّمِّ والعَيْبِ والنَّقص.

فأَمَّـا إنْ كان فيـه مَصلحةٌ لِعَامَّـة المسـلمين خَاصَّـةً لبعضـهم، وكان المقصـودُ منه تحصـيلَ تلك المصـلحة؛ فليس بمُحَرَّم؛ بل مَندوبٌ إليه».

أمثلة لإلغاء أهل الباطل للفروق

وقـد ضـرب الإمامُ ابـن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلـةً لطريقـة أهل الباطـل في أخذهم القدرَ المُشترَك بين الحقِّ والباطل وإلغاء الخصـائص الفارقـة المُميِّـزَة بينهُما، فقال عقبَ كلامه الآنف الذِّكر:

«مثـال ذلـك: أنَّ أعـداءَ الرُّسـل المُكذِّبِـين لهـم، الجاحدين لمـا جاءوا به مـن الحقِّ، لمَّا أرادوا تلبيسَ الحقِّ الَّذي جـاءوا بـه بالباطـل، أخذوا بينـه وبين الباطـل قدرًا مُشـتركًا، ثُمَّ أَلْغَـوْا القدرَ الفـارقَ، وما اختَصَّ به أحدُ النَّوعيْن؛ فقالـوا: هـذا الرَّسُـول شَـاعِرٌ وكَاهِـنٌ ومَجنونٌ وطالبُ مُلْكٍ ورياسـةٍ وصِيتٍ في العالَم:

فأخـذوا قدرًا مشـتَرَكًا بين الشِّـعر وبـين كلامه الَّذي جاء بـه من التَّرغيب والتَّرهيب، وحسـن التَّعبـير عن المعاني باللَّفـظ الَّـذي يَـرُوقُ المَسَـامِعَ، ويَهُـزُّ القلـوبَ، ويُحَـرِّكُ النُّفوسَ، فقالـوا: هو شَـاعِرٌ، وهـذا شـعرٌ، وضَـرَبُوا عنِ الخَصَائص الفَارِقَة صَفْحًا.

وقالـوا: هو كاهـنٌ؛ لأَنَّ الكاهنَ كان عندهـم مَعروفًـا بالإخبَـار عـن الأُمُور الغَائبـة الَّتي لا يُخْبِرُ بِهَـا غَيرُه، وكذلك هذا المُدَّعِي لذلك مِثْلُهُ.

وقالوا: مجنـونٌ؛ لأَنَّ المجنونَ يَقُولُ، ويَفعَلُ خِلافَ ما اعتَادَهُ النَّاس.

وقالـوا: سـاحر؛ لأَنَّ السَّـاحر يَأْخُذُ بالقُلـوب والعُيـون، ويُحَبِّبُ تـارةً، ويُنَفِّر أُخـرى، ولهذا قال لهم الوليد بن المغيرة



(10) «الصَّواعق المرسلة» (4/1216 . 1218).

ـ وقد سـألوه ماذا يقولـون للنَّاس في أمْرِ محمَّـد ـ، فَفكَّر، وقدَّر، ورأى أنَّ أقْرَبَ ما يقولون: هو سـاحرٌ؛ لأنَّه يُفرِّقُ بَينَ المَرءِ وزَوجـه، ومحمَّدٌ يفعَلُ ذلك، فـإنَّ المرأةَ إذا أسـلَمَتْ دُون زَوجها، أو أسلَمَ زَوجُها دونَها؛ وقعَت الفُرْقَةُ بينَهُما والعَداوة.

وكذلـك قولُهم عن القُرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أخَذُوا قدرا مُشْـتَركًا بَيْنَهما، وهـو جِنْسُ الإخْبَـارِ عَمَّـا أخـبرَ عنـه الأوَّلون.

وهكـذا قولُهـم: هـو طالـب مُلـكٍ ورِيَاسَة وصيت...

والمقصودُ أنَّ كلَّ مُبْطِلٍ؛ فإنَّه يَتَوصَّل إلى بَاطلـه بهـذه الطَّريق، ثـمَّ يُلْبِسُ ما يَدْعُـو إليه خَصَـائصَ الحقِّ، ومـا يُنَفِّرُ عنـه خَصَـائصَ الباطـل، وهـذا شـأنُ السَّـاحر؛ فكلامُه يُخْرِجُ الحقَّ في صورة الباطل، فيُنَفِّرُ عنه، والباطلَ في صـورةِ الحقِّ، فيُرَغِّبُ فيه».

يتقـرَّر مـن كلام الإمام ابـن القيِّم أنَّ هـؤلاء المبطلـين من أعداء الرُّسـل، أخـذوا بالقـدر المشـترك بين الرَّسـول ﷺ وبـين كُلٍّ مـن الشَّـاعر والكاهـن والمجنون والسَّـاحر، وألْغَوْا الخصائصَ الفارقة المُمَيِّزة بين الرَّسول ﷺ وهؤلاء المذكوريـن، مـع أنَّهـا لا تُحصـى كثرةً، ولا بأس بِذِكْـرِ شَـيءٍ منها على سـبيل الاختصار والإيجاز:

فمِنْ أعظَم الفروق بين الرَّسول ﷺ وبين هؤلاء جميعًا أنَّ كلامَ الرَّسول ﷺ وَحيٌ مـن الله ـ عزو جـل ـ، وكلامُ هؤلاء إمَّا وحيٌ من الشَّيطان، أو مِنْ نِتَاج خَيَال وبَنَات أفكار المُتَكلِّم به.

ومن الفُروق بيَن الرَّسول والشَّاعر:

أنَّ كلام الرَّسـول ﷺ مبنـيٌّ علـى الصِّـدْق، وكلام الشَّـاعر مبنـيٌّ علـى الكـذب والمُبَالَغَـات، لهـذا قيـل: أَعْذَبُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ!

أنَّ كلام الرَّسـول ﷺ مبنـيٌّ علـى العـدل، وكلام الشَّـاعر مَبْنِـيٌّ غالبًـا علـى الظُّلـم المتمثِّل في الهَجـو والطَّعن، أو الفَخـر والمـدح المبالَغ فيـه، أو الغَزَل والتَّشـبيب بالنِّسـاء...، ونحوهـا مـن أغراض الشِّعر المختلفة.

ومنَ الفُروق بين الرَّسول والكاهن:

أنَّ الرَّسولَ ﷺ صَـادقٌ في أخباره، والكاهـن كاذبٌ في أخبـاره، وقـد يقول مقولـةً صـادقةً، فيَكْـذِبُ مَعَهَـا مائَـةَ كَذْبَـة، كمـا جاء في الحديـث الَّذي رواه البخـاري (3210) عَنْ عَائشَـةَ رضي الله عنها مرفوعًـا: «**إنَّ المَلائكَـةَ تَنْـزِلُ في العَنَان، وَهُـوَ السَّحَـابُ، فَتَذْكُـرُ الأَمْـرَ قُضيَ في السَّمَـاء، فَتَسْـتَرقُ الشَّيَاطيـنُ السَّمْعَ، فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحيه إلَى الكُهَّان، فَيَكْذبُونَ مَعَهَا مائَةَ كَذْبَة منْ عند أَنْفُسهمْ**».

أنَّ الرَّسـولَ ﷺ يُخْـبِرُ بالخَبَر وهو حاضـرُ العقل، في كامل وَعيـه وإدراكه، أمَّـا الكاهن فَيُخْـبِرُ بالخَبَر، وهـو زَائلُ العَقل، بسبب تَخَبُّط شيطَانه له.

ومنَ الفُروق بين الرَّسول والمجنُون:

أنَّ الرسـول ﷺ كامـلُ العقل وافرُ المروءة، والمجنون ذاهب العقل.

أنَّ تصـرُّفات الرَّسـول ﷺ في غاية الاتِّزان، وتَصرُّفات المجنون غيرُ مُتَّزنَة.

أنَّ أفعالَ الرَّسـول ﷺ وأقوالَه حقٌّ، وهي خلافَ ما اعتَادَهُ النَّاس من الباطل والمنكر، لهذا قال الكُفار في شـأن نبيِّنا ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [سُورَةُ صٓ]، وقالـوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [سُورَةُ صٓ]، أمَّـا أقـوال المجنـون وأفعاله فهـي خلافُ ما اعتَـادَهُ النَّاس من الحقِّ والمعروف.

ومن الفُروق بين الرَّسول والسَّاحر:

أنَّ الرَّسـول ﷺ يَفتَـحُ الأَعيُـنَ العُمْيَ، والآذانَ الصُّـمَّ، والقُلُوب الغُلْفَ، فيُصَحِّحُ المَدارك والحَواسَّ، أمَّا السَّاحرُ فيُفسدُها.

أنَّ السَّـاحر يُفرِّق بـيْن المرء وزوجه بالباطـل؛ إفسـادًا لمعيشَـة كُلٍّ منهمـا، والرَّسـول يفـرِّق بينهمـا بالحَـقِّ ـ عنـد اختلاف دينهما ـ؛ استصـلاحًا لمعيشَـةِ كُلٍّ منهُما.

وفي هذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فالسَّـاحرُ يُفْسدُ الإدْرَاكَ، حتَّـى يَسْمَعَ الإنْسَانُ الشَّـيْءَ، ويَرَاهُ، ويَتَصَوَّرَهُ خلافَ ما هو عَلَيْه، والأنْبيَاءُ يُصَحِّحُون سَـمْعَ الإنْسـان وبَصَـرَهُ وعَقْلَهُ، والَّذين خَالَفُوهُـم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]: فالسَّـحَرَةُ يَزيـدُون النَّاسَ عَمًى وصَـمَمًا وبُكْمًـا، والأنْبيَاءُ يَرْفَعُون عَمَاهُمْ وصَمَمَهُمْ وبُكْمَهُم».

إلى أنْ قال رحمه الله:

«والمقْصُـودُ هُنَا أنَّ الأنْبيَاءَ يَفْتَحُون الأَعْيُنَ العُمْيَ، والآذان الصُّـمَّ، والقُلُوبَ الغُلْـفَ، والسَّـحَرَةُ يُفْسدُون السَّـمْعَ والبَصَـرَ والعَقْـلَ، حتَّى يُخَيَّلَ للإنْسَـانِ الأشْـيَاءُ بخلافِ ما هـي عَلَيْـه؛ فَيَتَغَيَّرَ حسُّهُ وعَقْلُهُ...»[11].

وقال ابن القيِّم في بيان بعض الفروق الَّتي يتعيَّن على المؤمن معرفتها:

«فإنْ رَزَقك الله فيه بصيرةً، خرجْتَ منه إلى فُرقَان أعظمَ منه، وهو:

الفَرقُ بين توحيد المُرسَـلين وتوحيد المُعَطِّلين.

والفَـرق بـين تَنزيه الرُّسـل، وتنزيه

(11) «النُّبوَّات» (ص 289 ـ 290).

أهل التَّعطيل.

والفَرقُ بـين إثبات الصِّفات والعُلُوِّ والتَّكلُّم والتَّكليم حقيقةً، وبين التَّشبيه والتَّمثيل.

والفَرقُ بين تجريـد التَّوحيد العملي الإرادي، وبـين هَضْـم أربـاب المراتـب مَرَاتِبَهم الَّتي أنزَلَهُم الله إيَّاها.

والفَرقُ بين تَجريد مُتَابَعة المعصوم، وبـين إهـدارِ أقـوال العلمـاء، وإلغائها، وعدَم الالتفات إليها.

والفَـرقُ بـين تقليـد العـالم، وبـين الاستضـاءة بِنُـور عِلمِـه، والاسـتعانَة بفَهمِه.

والفَرقُ بين أوليـاء الرَّحمن، وأولياء الشَّيطان.

والفَـرقُ بـين الحـال الإيمـاني الرَّحْمَاني، والحال الشَّـيطاني الكفري، والحال النَّفسَاني.

والفَرقُ بـين الحُكْم المُنَـزَّل الواجب الاتِّبَـاع على كُلِّ واحـد، والحُكـم المُؤَوَّل الَّـذي نهايتُه أنْ يكـونَ جائزَ الاتِّبَاع عند الضَّرورة، ولا دَرَكَ على مُخَالِفه»[12].

السَّبيل إلى معرفة الفروق

لقد بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ السَّـبيلَ إلى معرفة الفروق، فقال:

«والمقصـودُ أَنَّ أَرْبَـابَ البَصَـائرِ هُـمْ أَصـحابُ الفُرقان، فَأَعظَـمُ النَّاسِ فُرقَانًـا بـين المُشـتَبِهَات: أَعْظَـمُ النَّاسِ بصيرةً...».

والبصـيرة هـي العِلْـمُ بما جـاء به الرَّسـول ﷺ من الكتاب والسُّـنَّة، فقد سـمَّى الله تعالى ما جاء به رسـوله ﷺ بصـائر وهو جمع بصـيرة، فقـال - جَلَّ مِـنْ قَائـل -: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 104]، وقـال: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف]، وقـال: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية].

ثمَّ قال الإمـام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ عَقِبَ الكلام السَّابق:

«ولا يَحصُلُ الفُرقانُ؛ إلاَّ بنُور يَقذفُه الله في قَلـب مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـاده، يَرَى في ضَـوئه حَقائـقَ الأُمـور، ويُمَيِّـزُ بـين حَقِّهـا وبَاطلها، وصَـحيحها وسَـقيمها، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور]»[13].

ويَدُلُّنـا الإمام ابـن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ على طريـق تَحصـيل هـذا النُّـور، فيقـول: «وسُـئِلَ الإمـامُ أحمـدُ، فقيل لـه: «رُبَّما اشتَدَّ علينا الأَمرُ من جِهَتك، فمَنْ نَسأَلُ بَعدَك؟ فقال: سَلُوا عبدَ الوهَّاب الورَّاق؛ فإنَّه أَهلٌ أَنْ يُوَفَّقَ للصَّواب».

واقتدى الإمامُ أحمـدُ بقول عمر بن الخطَّـاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اقتربـوا مـن أفـواه المُطيعـين، واسـمعوا منهم مـا يقولون؛ فإنَّهم تَجَلَّـى لهم أُمورٌ صـادقَةٌ»؛ وذلك لقُرب قُلوبهم من الله، وكُلَّما قَرُبَ القلبُ من الله؛ زالَت عنه مُعَارَضـات السُّـوء، وكان نُورُ كَشْـفه للحَـقِّ أَتَمَّ وأَقوى، وكُلَّما بَعُـدَ عن الله؛ كَـثُرتْ عليه المُعارَضَـات، وضَـعُفَ نُورُ كَشْفه للصَّـواب؛ فإنَّ العلمَ نُـورٌ يَقذفُه الله في القلب، يُفَرِّقُ به العبدُ بين الخطأ والصَّواب.

وقال مَالكٌ للشَّـافعي رَحِمَهُمَا اللهُ في أَوَّل مـا لَقِيَـه: «إنِّي أرى الله قـد أَلقَـى على قَلبكَ نُورًا، فلا تُطفئْه بظُلمَة المعصيَة».

وقـد قـال تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]؛ ومـنَ الفُرقـان: النُّـورُ الَّـذي يُفَرِّقُ به العبدُ بين الحَقِّ والبَاطل، وكُلَّمـا كان قلبُـه أَقـربَ إلى الله؛ كان فُرقَانُه أَتَمَّ، وبالله التَّوفيق»[14].

والله الهادي إلى سواء السَّبيل، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل.

❋ ❋ ❋



(12) «الرُّوح» (ص 261)، وقد بين رَحِمَهُ اللهُ هذه الفروق هنالك، فراجعها.

(13) «الرُّوح» (ص 260).

(14) «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (258/4).





إعداد: أسرة التحرير

قصد الحقِّ وحده

■ قال الشَّيخ ربيع بن هادي المدخلي ـ حفظه الله ـ:

«فيجب على كلِّ مسلم أن يفتِّشَ نفسَه، فقد يميل إنسانٌ إلى صاحبِ الحقِّ لهَوَى، فقبل أن يتبيَّن له الحقُّ يتمنَّى أن يكون فلانٌ هو المُنْتَصِر بالحجَّة أو غيرها، فتميل نفسه لأنَّه فلان، ولو كان على الحقِّ لا يجوز أن يوجد هذا الميل، فيقول: إذا وُجِدَ هذا الميل ولو مع صاحب الحقِّ يكون من حكم الجاهليَّة، وهذا أمرٌ لا يخطر بالبال عند كثيرٍ من النَّاس.

فيجب على المسلم أن يراقب الله في القضايا المُختَلَف فيها، وأن يكون قصدُه فقط معرفةَ الحقِّ سواء مع هذا أو مع ذاك.

ومن هنا يقول الشَّافعي: «إذا دخلتُ مناظرةً لا أبالي إذا كان الحقُّ مع صاحبي أو معي»، فلا يبالي ولا يتمنَّى أن يكون الحقُّ معه بل يتمنَّى أن يكون مع صاحبه وأن تكون النُّصرة له، هذا هو الخُلُق العالي وهذا هو الدِّين المستقيم».

[«التعصب الذميم وآثاره» (38ـ39)]

الشِّرك والتَّوحيد

■ قال الشيخ مبارك الميلي رحمه الله:

«إنَّ حقَّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وإنَّ نسبةَ الشِّرك من التَّوحيد نسبةُ اللَّيل من النَّهار، والعمى من البصر، والمرض من الصِّحَّة، يَعرِض الشِّرك للأمم الموحِّدة كما يعرض الظَّلامُ للضِّياء، ويَطْرَأُ عليها كما تَطْرَأ الأسقامُ على الأجسام، غير أنَّ الظَّلام باعثٌ لنوم الأبصار لإفادة الرَّاحة للأشباح، أمَّا الشِّركُ فعلَّةٌ لنوم البصائر الموجب لشقاء الأرواح، وإذا كان حفظُ الصِّحَّة بالغذاء والدَّواء؛ فإنَّ حفظَ التَّوحيد بالعلم والدَّعوة، ولا يحفظ التَّوحيدَ علمٌ كعلم الكتاب والسُّنَّة، ولا تُجلِّي الشِّركَ دعوةٌ كالدَّعوة بأسلوبهما».

[«الشهاب» (520)]



تواصل العلماء

■ قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن يحيى المعلِّمي رحمه الله:

«وعلماء الدِّين أحوجُ النَّاس إلى التَّواصل والتَّعاون خصوصًا في العصر الَّذي تفشَّى فيه وباءُ الإلحاد، وقلَّت الرَّغبة في العلوم الدِّينيَّة، بل كادت تعُمُّ النُّفرةُ عنها، واستغنى كلُّ أحدٍ برأيه.

فعلماء الدِّين مفتقرُون إلى التَّعاون لإيجاد طرق تُقَرِّبُ المسافةَ بينهم وبين المُتعلِّمين العلوم الحديثة، وتُجلَى فيها المسائلُ الدينيَّةُ في معارض تتَّفق وطريقَ التَّفكير العصري، فيُستَطَاعُ بذلك إيقافُ الوباء عن زيادة الانتشار ومعالجةُ المرضى، بل والدِّعايةُ المثمرة إن شاء الله».

[«مجموع الرسائل الحديثية 1ـ14» (ص 422)]



لا إصلاح إلاَّ بالانتقاد

■ قال العلاَّمة عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ:

«لا يكون إصــلاح إلاَّ بالانتقاد، فلذلك وجدنا أنفسنا في خُطَّتنا مُضـطَرِّين إليه، وقد كانت منَّــا انتقـادات سياسـيَّةٌ واجتماعيَّـةٌ وأدبيَّةٌ ودينيَّـةٌ، وقد كانـت وجهتنـا الأولى في النَّقد الدِّيني هي الاعتقادات، ولقد كان همُّنا الأوَّلُ تطهـيرَ عقيدة التَّوحيد من أوضـار الشِّـرك القولي والفعلـي والاعتقادي؛ فإنَّ التَّوحيد هو أساس السُّلوك، ولذلك ابتدأ بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، قبل: ﴿ٱهْدِنَا﴾، في فاتحة القرآن العظيم.

هنا اصطدمنا بزعماء الطُّرق وشيوخ الزَّوايا الاصطدام المعروف؛ لأنَّه إذا خلص التَّوحيدُ توجَّه النَّاس إلى ربِّهم الَّذي خلقهم وتركوهم واعتقدوا فيهم أنَّهم مخلوقون مثلَهم لا يضرُّون ولا ينفعون، إلى غير هذا ممَّا يُنتجه التَّوحيد الصَّحيحُ من تحرير العقول والأرواح والقلوب والأبدان.

إنَّنا نصرِّحُ أمام الله وأمام النَّاس أنَّ هؤلاء القوم إخواننا في الدِّين والوطن، نحبُّ لهم ما نحبُّ لأنفسنا ونكره لهم ما نكره لها، ولهم عندنا من الحقِّ والحرمة ما للأخ عند أخيه، وإنَّنا ـ مع هذا ـ لا نُقرُّهم على جميع ما هم عليه، وإنَّنا إذا قلنا كلمةَ الحقِّ فإنَّما نقولها على وجه النُّصح الَّذي فرضه الله على المسلمين، غير زارِّين عليهم في شخصيَّاتهم ولا قادحين في شأنٍ من شؤونهم الخاصَّة بهم، والحَكَمُ فوق الجميع هو كتاب الله وسنَّةُ رسوله وعمل سلف الأمَّة الصَّالحين.

وإذا رضي إخواننا بهذا الحكم ـ قولاً وتطبيقًا ـ فإنَّنا نرجو رجاءً قويًّا حصول الخير العميم للجزائريِّين وأن يكونوا هم مِنْ أقوى أنصاره المؤيِّدين».

[«آثار الشَّيخ عبد الحميد ابن باديس» (5/170 ـ 171)]

درر من كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ

■ «منشأُ الضَّلال أن يُظَنَّ أنَّ صفات الرَّبِّ كصفَات خلقه، فيُظَنُّ أنَّ الله سُبحانه على عرشه كالملك المخلوق على سَريره، فهذَا تمثيلٌ وضلالٌ؛ وذلكَ أنَّ الملكَ مفتَقرٌ إلى سَريره، ولو زالَ سريرُه لسقَط، والله غنيٌّ عن العَرش وعن كلِّ شيء، والعرشُ وكلُّ ما سواه فقيرٌ إلى الله، وهُو حامل العَرش وحمَلَة العَرش، وعلوُّه عليه لا يُوجب افتقارَه إليه، فإنَّ الله قد جَعَلَ المخلوقات عاليًا وسافلاً، وجَعَلَ العاليَ غنيًّا عن السَّافل، كمَا جعل الهواءَ فوقَ الأرض، وليسَ هو مفتقرًا إليهَا، وجعَل السَّماءَ فوقَ الهواء، وليسَت محتاجةً إليه.

فالعَليُّ الأعلَى ربُّ السَّـماوات والأرض وما بينَهُما أَوْلَى أن يكونَ غنيًّا عن العَرش وسائر المخلوقات وإن كان عاليًا عليها، سُبحانه وتعَالى عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا». [«جامع المسائل» (3/201)]

■ «الإنسانُ إذا لم يعلَم منَ الحقِّ ما يحتَاجُ إليه أو لم يُقرَّ به أو لم يُحبَّه كان ظالمًا لنفسه، وإنْ أقرَّ بباطل أو أحبَّه واتَّبَع هواه كانَ ظالما لنفسه، فظلمُ النَّفس يعودُ إلى اتِّباع الظَّنِّ وما تهوى الأنفُس، وهذَا يكونُ في اتِّباع الآراء والأهواء، فأصلُ الشَّرِّ البدَعُ، وهو تقديمُ الرَّأي على النَّصِّ، واختيارُ الهَوَى على امتثالِ الأمر، وأصلُ الخير اتباعُ الهُدَى».

[«جامع المسائل» (4/49)]

■ «وأبو بكر الصِّدِّيق كانَ أقوى الصَّحابة قلبًا، وأربطَهم جَأْشًا، وأعظمَهُم ثباتًا، وأشدَّهم إقدامًا، وأبعدَهم عن الجَزع والضَّعف والجُبن، ولهذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يَصْحَبُه وحدَه في المواضع الَّتي يكونُ أخوفَ ما يكونُ فيها، كمَا صحبه في الهجرة، وكان معَه في الغَار، والعدوُّ يطلبُهما ويَبذل ديتَهُما لمن يأتي بهمَا، وكان معَه في العَريش يومَ بدرٍ وحدَه والكفَّارُ قاصدون الرَّسولَ خصوصًا.

ولهـذا لـمَّا مات النَّبـيُّ ﷺ ظهر من شـجَاعته وبَسَـالته وصـبره وثباته وسياسته وتدبيره وإمامته للدِّين وقَمْعه للمرتدِّين ومعونَته للمُؤمنين وسَدِّ ظهورهم ما لا تَتَّسِـع هذه الورقة؛ وكلُّ مَن له بالشَّجاعة أدنى خبرةٍ يعلَمُ أنَّه لم يكُن منهُم مَن يُقاربُه في الشَّجاعة فضلاً أن يُشَاركَه».

[«جامع المسائل» (3/250)]

■ «والصَّلاح كلُّه في طاعَة الله، والفسادُ كلُّه في معصية الله، فالصَّلاحُ والطَّاعةُ متلازمَان، والمعصيةُ والفسادُ مُتلازمَان، كتَلازُم الطَّيِّب والحلِّ، وكلُّ طيِّب حلالٌ وكلُّ حلالٍ طيِّبٌ، وكلُّ خبيث حرامٌ، وكلُّ حرام خبيثٌ». [«جامع المسائل» (4/45)]



بريد القراء

■ أرسل إلينا أخونا الودود فريد بالو من ولاية البويرة قصيدةً عن الشَّام الجريحة، مطلعها:

يا شامُ يا أرضَ الأنبياء □ ويا مهبطَ الوحي من السَّماء
كلُّ جرح فيك أمسى □ جرحًا في كبدي بلا مراء

أما عن طلبه فنرجو أن يُحَقَّق، وفَّقنا الله وإيَّاه لما فيه رضاه، وجعل الجنَّة مثوانا ومثواه.

■ ولا ننسى الأخ المبجَّل إسماعيل بوغربال من مدينة الأخضرية، على مراسلته وتواصله معنا وتنويهه بالمجلَّة والقائمين عليها وحسن ظنِّه بهم.

أمَّا عن موضوع تغسيل الميِّت وتكفينه وما يتبع ذلك، فسنحاول تحقيقَه والكتابةَ فيه، ويمكنه الرُّجوع إلى كتاب «أحكام الجنائز وبدعها» للإمام الفقيه محمَّد ناصر الدِّين الألباني ؒ، فهو فريدٌ في بابه.

■ وجزى الله خيرَ الجزاء الأخ بوتخيل غفيري من ولاية بشَّار على تواصله معنا وثنائه على المجلَّة ودعائه لها بالثَّبات والاستمرار، وسنرسل إليه أعدادًا من المجلَّة إن شاء الله.

■ وأمَّا الأخ الكريم أبو همَّام إبراهيم اليسري من بومرداس: فنشكره كثيرًا على وفائه للمجلَّة وشدَّة اهتمامه بها وحبِّه لها.

وقد كتب ـ دليلا على ذلك ـ أبياتًا في مدحها، مطلعُها:

مـجلَّـةٌ سارت في الرُّكبان
مجلَّة الإصلاح يا أولي الغفران
تسعى لنشر سنَّة المصطفى
على نهج السَّلف الكرام يا إخواني

■ جزى الله خيرَ الجزاء الأخ طارق لعناني على تواصله معنا ووفائه لمجلَّتنا الغرَّاء، ونسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرش العظيم أن يرزقنا وإيَّاه العافية في الدُّنيا والآخرة.

أمَّا عن طلبه فسَيُلَبَّى في وقتٍ لاحقٍ إن شاء الله، والله الموفِّق والمعين.

■ والشُّكر موصولٌ إلى الأخ المفضال نبيل بلوصيف المتخرِّج من جامعة الأمير عبد القادر ـ تخصُّص دراسات أدبيَّة ـ على الثَّناء العاطر على المجلَّة، وجزاه الله خيرًا على الفوائد والدُّرر الَّتي ذكرها في تفسير كلمات الأذان، ولعلَّ هذا الموضوع سنخُصِّص له مقالاً خاصًّا، وزاده الله علمًا وتوفيقًا.

■ وصلنا خطابٌ من الأخ إسحاق بن غانم الوَرْتلاني أظهر فيه إعجابَه بالمجلَّة ووفاءَه لها، فهي المجلَّةُ ذات «المنهج السَّلفي»، كما نوَّه بشأن المشايخ القائمين عليها وأشاد بعلمهم واجتهادهم في المجلَّة والدَّورات العلميَّة.

أمَّا عن اقتراحه، فسنحاول تحقيقَه قدرَ الإمكان، فشكرًا جزيلاً للأخ إسحاق.

■ بارك الله في الأخ الكريم المحبِّ مصطفى شلابي من ولاية المديَّة على كتابه المُرسَل إلينا، والمُتضمِّن الثَّناء على المجلَّة والقائمين عليها، وقد أعجبه ـ وحُقَّ له ذلك ـ مقال «طمس الدِّين» في الرَّدِّ على بعض المبتدعة والخرافيِّين.

كما نشكره كثيرًا على اهتمامه بشأن الدَّعوة السَّلفيَّة المباركة، وعلى غيرته على السُّنَّة ومشايخها، وعلى اقتراحاته المُوفَّقة للمزيد من الرَّدِّ على المبتدعة والمرجفين والمفسدين والسَّعي لحماية التَّوحيد والأمن واستقرار البلاد.

وذلك باستعمال جميع الطُّرق المشروعة، فجزاه الله خيرًا على حرصه وهمَّته.